حسين أحمد أمين

كيمياء السعادة

اقرأ
سلسلة ثقافية شهرية
تصدر عن دار المعارف







سلسلة ثقافية شهرية
تصدر عن دار المعارف

[٦٣٨]

رئيس التحرير: رجب البنا

تصميم الغلاف : منى جامع

حسين أحمد أمين

كيمياء السعادة



دار المعارف

إن الذين عنوا بإنشاء هذه السلسلة ونشرها ، لم يفكروا إلا فى شيء واحد ، هو نشر الثقافة من حيث هى ثقافة ، لا يريدون إلا أن يقرأ أبناء الشعوب العربية . وأن ينتفعوا ، وأن تدعوهم هذه القراءة إلى الاستزادة من الثقافة ، والطموح إلى حياة عقلية أرقى وأخصب من الحياة العقلية التى نحياها .

طه حسين

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

الإهــــداء

إلى حفيدتى «أمينة»؛
جاءت فى شتاء العُمْر لتُحيلَه ربيعًا،
ولتُضيفَ بُعْــــدًا جديــدًا إلى أبعـــــاد سعادتـــــى
بالحياة.



مقدمة

أهمّ دواعى سعادتى بنشرى لهذا الكتاب فى سلسلة «اقرأ»، هو أن أبى المغفور له الدكتور أحمد أمين كان صاحب فكرة إصدار هذه السلسلة، ومن أوائل من أسهم بالتأليف لها.. ورغم أنه كان أثناء صبانا حسن الظن بمستقبلى ومستقبل أخى جلال، فما أحسب إلا أنه كان سيشعر بالدهشة، والغبطة، لو أنه علم وقت أن خطرت له فكرة السلسلة عام ١٩٤٣، أنها ستنشر فى يوم ما كتابًا لكل من ولديه: «العولمة» لجلال أمين فى أول نوفمبر ١٩٩٨، و «كيمياء السعادة» لى هذا الشهر.

وأنا أشكر الصديق العزيز، والصحافى البارز، الأستاذ رجب البنّا أن جمع بين ثلاثتنا تحت مظلّة سلسلة واحدة.

ثمّة دون شك عامل الوراثة؛ لا عن والدنا فحسب وعن أبيه العالم الأزهرى، وإنما أيضا عن جدّنا لأمّنا الدكتور أحمد حمدى (توفّى عام ١٩٠٣) صاحب المؤلفات الهامة فى الطب، وأبيه محمد على باشا البقلى، المعروف بالحكيم (١٨١٣ - ١٨٧٦) الذى خلف كلوت بك فى مدرسة الطب فأصبح أول ناظر مصرى لها.

ثم البيئة.. فالمكتبة فى منزلنا كانت تحوى أكثر من عشرة آلاف مجلّد باللغتين العربية والإنجليزية، فى التاريخ والأدب والفلسفة وعلوم الدين إلى آخره. وأصدقاء والدنا وتلاميذه ومعارفه والأدباء الناشئون، من أمثال نجيب محفوظ وعادل كامل، يهدون إليه كل كتاب جديد يصدرونه. وهذه مكتبة النهضة المصرية التى تنشر كتبه يسمح والدنا لنا بشراء أىّ كتب نريدها منها ثم تخصم ثمنها من حسابه فى نهاية العام.. وحديث

والدنا إلينا كلما التقى بنا على مائدة الإفطار أو الغداء أو العشاء هو فيما يقرأ أو يكتب، أو هو يقصّ علينا ذكرياته عن كبار المفكرين في زمنه، وطرائف عن الأدباء من أصدقائه، أو عن مداولات مجمع اللغة العربية في اللغة، أو ينشدنا قصيدة راقته من شعر ابن الرومي أو شوقي.. وأصدقاؤه الكُتّاب يزوروننا في بيتنا فنجاذبهم أحيانًا أطراف الحديث، ونسألهم الأسئلة فيجيبون عليها في صبر وسعة صدر، وقد ينبرى توفيق الحكيم أو محمود تيمور فيوصينا بقراءة هذا الكتاب أو ذاك. وفي أيام الخميس نعود فنلتقي بهم مجتمعين في الندوات الأسبوعية بمقر لجنة التأليف والترجمة والنشر التي يرأسها أبي، والتي لا نزال نحمد له إلى اليوم سماحه لنا بحضور ندواتها كلما شئنا ونحن بعد دون سن العاشرة.

وكنا ندرك منذ نعومة أظفارنا أن توقير الناس لوالدى وإجلالهم إيّاه راجعان أساسا إلى أنه مَفكّر ومؤرّخ وأديب، وهو ما انعكس أيضا على معاملة المدرّسين لنا في المدرسة. فكان أن غُرس في وجداننا منذ طفولتنا وإلى اليوم الإيمان الراسخ بأنه ما من نشاط بشرىّ يفوق النشاط الفكرى قيمة، فلم نطمح في يوم من الأيام إلى ممارسة غيره.

وثمة كذلك توجيه أبي إيّانا، خاصة منذ أن لمس فينا إقبالاً شديدًا على القراءة، ونَهمًا لا حدّ له إلى دراسة التاريخ والأدب. ولم يقتصر هذا التوجيه على انتقائه للكتب التي يرى لنا مصلحة في قراءتها، فتعدّاه إلى ما هو أهمّ بكثير من ذلك، وهو تدريبنا علَى النقد والشك، والنظرة العلمية إلى المادة والمصادر، ولفت نظرنا إلى ما قد يتحكّم في المؤلفين القدماء والمحدثين من أهواء مذهبية، ونزعات سياسية أو عصبيّات.

وقد كانت عناية أبى منصبّة أساسًا على تعليمنا اللغات تعليمًا متقنًا. فانتقى لنا مدرّسا ممتازا للغة العربية، وآخر لا يقلّ امتيازًا للإنجليزية، وثالثا وسطًا للفرنسية، ظلوا مدة عشر سنوات يعطوننا دروسًا خاصة فى البيت فى تلك اللغات، ويقرءون معنا كتبها.

وكانت النتيجة أننا لم نجد أبدًا، فى أية مرحلة من مراحل حياتنا، أية صعوبة أو معاناة من جرّاء تنقّل قراءاتنا من كتب التراث العربىّ القديمة إلى كتب المحدثين إلى كتب الفرنجة، أو إزاء ما يسمّيه البعض بمشكلة التراث والمعاصرة، وهى مشكلة تعلّمنا من والدنا منذ الصغر أن ننظر إليها باعتبارها مشكلة عقيمة لا نحسب أن مجتمعات كثيرة غيرنا تعرف مثلها. وهى مشكلة أساسها عجز المتفرنجين عن استساغة التراث، ووصل ما بينهم وبين الماضى، وعجز السلفيين عن المعاصرة والاستفادة من حضارات الغير بسبب جمودهم الفكرى أو قلة حصيلتهم من اللغات الأجنبية. وقديمًا قال أبو حيان التوحيدى: «إن سمعت أحدهم يتلو ﴿ ما عند اللّه خير وأبقَى ﴾، فاعلم أن لدى جاره وليمة لم يدعه إليها!»

حسين أحمد أمين

كيمياء السعادة

- ١ -

علّمتنى الحيـــاة

أمّا وقد جاوزتُ السادسة والستين، فقد بات بالوسع أن أتأمل من فوق قمّة الجبل ما سرتُ فيه أثناء صعودى إليها من دروب متعرّجة، ومسالك متشعبة ، بعضُها كان يؤدى بى إلى طريق خاطئ مسدود يضطرّنى إلى العودة أدراجى لالتماس غيره، وتصحيح مسارى، وتعويض ما ضاع علىّ من الوقت.. وهى دروب ومسالك ما كنت أثناء تصعيدى فى الجبل أحسّ بتعرّجها وتشعّبها، أو أعلم بما ستؤدّى إليه، حتى أشرفت الرحلة على النهاية، وأشرفتُ قرب نهاية الرحلة على هذه الدروب من علٍ، فأصبح بالوسع أن أتبينّ فى يُسر ما ارتكبتُه من أخطاء، وما حالفنى من توفيق..

فإن كان الشباب عادة ما يأبى الإفادة من تجارب من سبقوه، ويصرّ على حقّه فى أن يجرّب بنفسه وإن أخطأ وانحرف عن جادّة الطريق، فسيظل من واجب الشيوخ أن يعرضوا ثمار خبراتهم، شاء الشباب أن يمدّ إليها يده أم أبى، وسيظل صحيحا القول بأن من شأن بيان تلك الخبرات أن يوفر على الشباب المطلع عليها الكثير من الوقت والجهد، وقدرا كبيرا من الشقاء والحيرة، والتخبّط والزّلل، دون أن نعنى بذلك إنكار حق الشباب فى التماس طرق جديدة، ورفض بعض ممارسات لآبائهم لا هى أسعدتهم، ولا أوصلتهم إلى الغاية المنشودة.

غير أنه مما يشجّعنى أيضا على الحديث عمّا علمتنى الحياة إياه، وما كشفت لى عنه تجاربى، هو أن حياتى إلى يومى هذا - رغم ما صادفنى خلالها من متاعب، وفترات من التخبّط - كانت إلى حدّ كبير، ولله الحمد، حياة سعيدة هانئة، مستقرة راضية، ربما على نحو لا هو بالشائع ولا بالمألوف. فإن كان المثل يقول: «من تحدّث عن حسن حظّه كان الشرّ فى انتظاره»، فإن الآية القرآنية الكريمة تقول: ﴿ وأمّا بنعمة ربك فحدّث﴾ وقد سبق للقديس فرانسيس داسيسى أن نصح أصحابه بأن يبدوا فرحهم بعقيدتهم، وأن يظهر من محيّاهم ومسلكهم ما يتملكهم من السعادة إذ انتهجوا هذا النمط من العيش، إذ من المؤكد أن الناس سيتساءلون عما عساه قد عمر قلوبهم بهذه الغبطة والرضا وهدوء البال، حتى إذا ما عرفوه مالوا إلى اختباره بأنفسهم.. وبذا فقد يكون من واجب كل إنسان تميّز الشطر الأعظم من حياته بقدر كبير من السعادة أن يعرض على الغير حصيلة تجاربه فى هذا الميدان، وخلاصة ما علمته الحياة بهذا الصدد، علّ الآخرين أن يفيدوا من هذه الحصيلة وهذه الخلاصة.

لقد استهلّ تولستوى روايته «أنّا كارنينا» بقولته الشهيرة: «كل العائلات السعيدة يشبه بعضها بعضًا. أما العائلات الشقيّة فلدى كل منها أسبابها الخاصة التى نجم شقاؤها عنها». وفى ظنى أن هذا القول ينطبق على الأفراد انطباقه على العائلات.. فكافة من عرفتهم أو قرأت أو سمعت عنهم من الأفراد السعداء يكادون أن يكونوا متشابهين فى أسباب سعادتهم، بحيث يحق لنا الحديث عن وجود مقوّمات ثابتة مطلقة للسعادة، وعن عناصر «كيميائية» تكونها أو تساعد على تكوينها.. قد يتحدث البعض عن أن السعادة نسبية تختلف أسبابها باختلاف الأفراد،

وأن ما من شأنه أن يُسعد هذا قد لا يسعد ذاك بالضرورة . غير أن هذا القول الذى قد يبدو للكثيرين سليما - والذى سنناقشه فيما بعد تفصيلا - لا يمكن أن ينتقص من حقيقة اشتراك السعداء فى سمات واحدة أو متقاربة، وهو اشتراك ينفى عن السعادة صفة النسبية، ويجعل من المشروع محاولة معرفة السبل المحددة التى يمكن للفرد أن ينتهجها فتؤدى به إلى السعادة، والقول بوجود سعادة إيجابية رغم غلبة الشقاء على أغلب الناس، ورغم حديث بعض الأديان، والكثير من الفلاسفة، وغالبية البشر، عن أن الحياة شرّ محض، أقصى ما يمكن للإنسان أن يبلغه فيها هو تجنب الألم قدر الإمكان.

ما هو خارج عن سلطان الفرد:

غير أنه لا مفر من أن أتدارك هنا فأوضح أن ثمة شروطا للسعادة لا تخضع لإرادة الفرد، كالصحة، والثروة، وبهاء الطلعة، وطيب المحتد، والمزاج الشخصى، والذكاء والمواهب، والظروف الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التى يعيش فيها. فهى إلى حدّ كبير من هبات القدر، وقد لا تكون للفرد حيلة حيالها. فجمال المرأة مثلا - بل ووسامة الرجل - هما خطاب توصية مفتوح قد ييسّر لهما ما يجده غيرهما عسيرا. وثمة من الشروط كالظروف الاقتصادية والسياسية فى موطن الشخص ما قد يُسهم فى زيادة فرص سعادته وتحقيق ذاته وإشباع احتياجاته المادية والروحية وتنمية مواهبه، أو فى الانتقاص منها.. بل إن هناك من هذه الشروط ما قد يؤدى الافتقار إليها إلى إقامة عقبة كأداء فى سبيل نيل السعادة. فالصحة مثلا التى تشكل فى رأينا الخلفية

الضرورية لبناء حياة سعيدة قد يؤدى الافتقار إليها إلى فقدان القدرة على الاستمتاع بكل شيء آخر، كالثروة والشهرة والمركز الرفيع والمكانة الاجتماعية.. كذلك فإن المزاج الذى لا يكاد أن يكون للإنسان دخل فيه، من شأنه متى كان سوداويا أن يصبغ كل ما فى الحياة - حتى أبهى مظاهرها - بلونه وطابعه، بحيث تنطبق هنا قولة المتنبى:

ومَن يكُ ذا فمٍ مرٍّ مريض

يجدْ مُرّا به الماءَ الزّلالا

ثم قد لا تكون الثروة على الإطلاق شرطا أساسيًا أو ثانويًّا للسعادة، بدليل شيوع التعاسة ومشاعر القلق والملل بين الأغنياء. (وهو ما حدا بتولستوى إلى القول فى روايته «الحرب والسلام» بأن منشأ كل ضروب التعاسة ليس هو الفقر والحرمان، وإنما هو زيادة المال على الحاجة).. غير أنه من المؤكد، وإن لم يكن للثراء دخل أو تأثير فى السعادة، أن توفّر المال قد يجنب المرء الكثير من ضروب الشقاء، وأن الفقر المدقع سبيل أكيد إلى خلق المتاعب والهموم والمشكلات..

كل هذا صحيح، وقد لا يكون للمرء - كما سبق أن ذكرت - حيلة فيه. غير أن الأمر الواضح هو شيوع السخط وعدم الرضا حتى لدى موفورى الصحة وموفورى الثراء، وهو ما يستغربه سقيمو الصحة والفقراء بالأخص، فيغدو تعجّبهم مصداقا لقولة برناردشو: «إن من تؤلمه ضروسه يظن كافة من لا تؤلمهم ضروسهم سعداء!». وفى رأينا أن سبب فساد هذا الظن هو أن توفّر الصحة وتوفر المال ليسا من مقومات السعادة وإنما هما من شروطها؛ أو بتعبير آخر: أنهما لا يحققان السعادة فى حدّ ذاتيهما، غير أن السعادة لا تتحقق مع الافتقار إليهما. فإن كان من الصعب أن

يستشعر من تؤلمه ضروسه بالسعادة وقت الألم، فلا مفرّ من الإقرار بأن ثمة ملايين التعساء فى عالمنا هذا ممن لا تؤلمهم ضروسهم!.

الإنسان السعيد:

فإن افترضنا تمتّع المرء بالصحة الطيبة وبقدر معقول من الاكتفاء المادى، وجدنا سائر الشروط التى لا غنى عنها لسعادة معظم البشر شروطًا لا يصعب توفرها: مثل الصداقة والحب، والحياة العائلية الهانئة، والنجاح فى العمل، والسمعة الطيبة، واحترام الآخرين. وهى شروط من البساطة بحيث يمكن للمرء أن يحققها لنفسه ببعض الجهد والحكمة وضبط السلوك، وبحيث يحق لنا أن نقول إن الإنسان الذى يتمتع بها ولا يشعر بالسعادة رغم ذلك يعانى من خلل نفسى معين. ويذهب الكاتب البريطانى ر. هـ. تونى R. H. Tawney إلى أنه «لو كان أمام المرء عمل هام، يُقبل بهمة على أدائه، ولديه من وقت الفراغ والدخل المادى ما يمكنه من أدائه على وجه طيبٌ، فإنه يمتلك من أسباب السعادة كل ما بوسع بنى آدم أن يمتلكوه منها». وهى قوله أقرّها وأوافق عليها (مع ما فيها من بعض المبالغة) وأفسرها على النحو التالى:

أنه على فرض أن الظروف الخارجية التى تواجه الفرد ليست بالظروف واضحة السوء، فإن بوسعه أن ينال السعادة متى اتجهت عواطفه واهتماماته إلى خارج نفسه لا إلى داخلها، ولم ينحصر تفكيره فى ذاته.. فكما أنه من الصعب أن نتخيل إنسانا سعيدا داخل السجن، فإنه يصعب عليه أن يجد السعادة فى شرّ صنوف السجن طرّا، ألا وهو سجن العواطف والشهوات التى تجعله حبيس ذاته. ومن بين أكثر هذه العواطف والمشاعر شيوعًا نجد الخوف، والحسد، والإحساس بالذنب

والتحسّر على النفس، والغرور.. فمع كل من هذه المشاعر تتركز رغائبنا على أنفسنا، فلا تدع مجالاً لاهتمام حقيقى بالعالم الخارجى، اللهم إلا ما يتعلق بالقلق من أن يُحبط العالم الخارجى تطلّعاتنا.. والخوف بالذات هو السبب الرئيسى فى عزوف الناس عن مواجهة الحقائق، وفى تفضيلهم الالتحاف بكساء الخرافة يلتمسون منه الدفء. غير أن أشواك الحقيقة سرعان ما تُحدث ثقوبًا فى كساء الخرافة، فتتخلّل الريح الباردة هذه الثقوب وتُزعج المدّثر به أكثر مما تزعج الإنسان الذى عوّد نفسه عليها منذ البداية.. أضف إلى ذلك أن أولئك الذين يخدعون أنفسهم غالبًا ما يعرفون فى قرارة أنفسهم أنهم يخدعون أنفسهم، فإذا القلق يساورهم دائما من أن يحدث لهم ما قد يكون من شأنه أن يفرض عليهم الحقائق التى كانوا يأبون فى إصرار قبولها.

فعندى إذن أن الإنسان السعيد هو الإنسان الموضوعى ذو الاهتمامات العديدة المتنوعة الخارجة عن نطاق ذاته. ومادام المرء مشغولاً بالتفكير فى أسباب تعاسته فسيظل دومًا محصورًا فى ذاته، وسجين نفسه، فيدور بالتالى فى حلقة مفرغة. وقد لاحظ الحكماء أن سرّ التعاسة يكمن فى وقت الفراغ الذى يُتاح للمرء فيه أن يتساءل عما إذا كان شقيًّا أو سعيدًا، وذهبوا إلى أن علاجه هو فى العمل، بل هو فى الكدّ فى العمل حتى يصيب المرء التعب الذى هو من أشراط السعادة. ويكفى لأن ندلّل على ذلك أن نذكر أن استمتاعنا بسماع الموسيقى يبلغ أقصاه بعد العشاء فى نهاية يوم حافل. أما الموسيقى قبل الإفطار مثلا فننفر منها، وتبدو لنا أمرًا غير طبيعى. والإجازة الصيفية لمن لم يرهق نفسه فى الشتاء لا جدوى ولا طائل من ورائها، بل هى عبء حقيقى. كما أن الإجازة الدائمة التى يعيش فيها بعض الأثرياء هى أفضل تعريف للجحيم.

فإن شاء المـرء الخـروج مـن سجن ذاتـه فلابـد لـه مـن الـتركيز علـى اهتمامات حقيقية له نابعة من طبيعته. فأما الاهتمامات الزائفـة التـى قـد يلجأ إليها من قبيل العلاج فلا جدوى منها. وأمـا الاهتمامـات الحقيقيـة فستُشعر المرء بأنه جزء من خضم الحياة وتيّارها، لا وحدة منفصلـة صَلْبـة ككرة البلياردو التى لا تربطها بالكرات الأخرى غير علاقة التصادم. مثـل هذا الإنسان يشعر بأنه مواطن فى الكـون، يتـابع المناظر والمشـاهد التـى تدور حوله باهتمام، ويسـتمتع بتأملـه إياهـا، وبمـا توفّـره لـه مـن فـرص البهجة؛ لا تؤرّقه فكرة الموت، إذ هو يشعر أنه ما من شيء يفصله حقيقةً عمن سيخلفه في الأرض.. وهذا الاتحاد الغريزى العميق مع تيـار الحيـاة· هو عندى أعظم سعادة يمكن للإنسان أن ينالها.

عن نسبية السعادة:

قد ينبرى البعض هنا بالاعتراض علـى افـتراض أن مقومـات السـعادة واحدة أو متقاربة عند الكافة، فى الوقت الذى نلاحظ فيه أنه بالرغم مـن أن نيل السعادة هو هدف كل إنسان علي وجـه الأرض، فـإن كـل امـرئ يسعى إليها بطريقته الخاصة، وينشد باسمها غايات مختلفة.

ولى على هذا الاعتراض عدد من التحفظات والاعتراضات المقابلة:

أولاً: أن ثمة من الفلاسفة – كالفيلسوف الألمانى كانط – مـن يسـتنكر فكرة وجوب أن تكون السعادة الشخصية هى هـدف الفـرد، ويسـتنكر أن يوجّـه المـرء تصرفاتـه مـن أجـل تحقيقـها. فـهو يـرى أن مبـدأ السـعادة الشخصية يتنافى مع القانون الأخلاقى. فالأول إنمـا يـهدف إلى إشباعنا لكافة رغباتنا (وهو ما قد يتعارض مع مقتضيـات سـعادة الآخريـن)، فـى

حين يقضي الثاني بأن يكون هدفنا، لا أن نكون سعداء، وإنما أن نصبح جديرين بالسعادة. فالرغبات وسبل إشباعها لا قيمة لها عنده، وإنما القيمة الحقيقية عنده هي في كيفية تنظيم حياتنا وسلوكنا على أسس أخلاقية سليمة بحيث نكون أهلا للسعادة، نِلْناها بعد ذلك أم لم نَنَلْها، وإن كان الأرجح أننا سننالها متى توفرت هذه الأسس. ويذهب كانط إلى أنه بالرغم من أن المرء لن ينال السعادة إلا عن طريق الالتزام بالواجبات الأخلاقية، فإنه لا ينبغي له أن يجعل من السعادة هدفا لالتزامه بهذه الواجبات، وإلا لما كان تصرّفه أخلاقيًّا، ولا كان جديرًا بالسعادة الكاملة. فالقانون الأخلاقي يقضي بأداء الواجب دون شروط ودون متطلبات.. قد تكون السعادة هي ثمرة الالتزام به، غير أنه لا ينبغي أن يجعل المرءُ من نيلها شرطًا لهذا الالتزام.

ثانيًا: أما عن القول بأن كلاًّ منا يسعى إلى نيل السعادة بطريقته الخاصة، وأن الناس يرونها في أمور متباينة شتى، فقول صحيح إن قُصد به وصف الواقع الحيّ، ومخطئ إن قُصد به أن سبل نيل السعادة تختلف من فرد إلى فرد، وأن ما من شأنه أن يسعد زيدا قد لا يُسعد عَمْرًا، وأن الرغبات التي يسعى هذا إلى إشباعها غير تلك التي يحاول إشباعها ذاك. وقد يكفينا للردّ على هذا الرأى أن نشير إلى عجز غالبية البشر عن نيل السعادة رغم سعيهم الدائب الجادّ إليها عن طريق تحقيق أهدافهم الخاصة (كالثراء والجاه والشهرة والمركز الاجتماعي المرموق والزواج من شخص معينّ، إلى آخره)، مما يوحي بأن رغباتهم تلك لم تكن في حقيقتها من مقوّمات السعادة، وأن الناس كثيرًا ما يضلّون ويفضّلون الأسوأ على الأفضل، وكثيرا ما يسعون وراء ما قد يزيدهم بؤسًا،

وأن الرغبة القوية فى الشيء قد تضفى على هذا الشيء سمات ظاهرية خدّاعة، سرعان ما يتبين أنه كالسراب ﴿ يحسَبُه الظمآنُ ماءً حتى إذا جَاءه لَمْ يجده شَيئًا ووجَد اللّهَ عنده ﴾ .

ثالثًا: أن طبيعة الناس جميعا هى فى الأصل واحدة، ولديهم نفس المجموعة من الرغبات والاحتياجات الطبيعية بحيث يمكن القول بأن الأمور الكفيلة بإشباعها هى واحدة بالنسبة للكافة، ويحقّ لنا عندئذ الحديث عن عِلم شبيه بالرياضيات أو الكيمياء يحدّد السبل المنطقية إلى نيل السعادة على نحو قد يصعب الجدال حوله. أما القول بأن الأفراد فى واقع الحال يلتمسون السعادة عند مصادر شتى، فلا يغيّر من حقيقة أن السعادة التى يجدر بهم التنقيب عنها ينبغى أن تناسب الطبيعة البشرية التى يشتركون فيها، وأنه من غير المجدى التماسها عند المصادر التى تحدّدها لهم طبائعهم الفردية، واحتياجاتهم الخاصة، وأمزجتهم المتنوعة. فهم فى هذه الحالة الأخيرة إزاء مفاهيم خاطئة، وحيال مصادر زائفة، تبدو قادرة على إشباع رغبتهم فى السعادة، دون أن تكون لديها فى الحقيقة هذه القدرة.

رابعًا: أن ثمة فارقا ضخما بين الإحساس بالرضا، أو باللذة، أو حتى بالسعادة فى فترة معينة، وبين الحياة السعيدة فى مجموعها، وفارقًا بين قضاء وقت هنئ وبين العيش عيشة هانئة.. قد يستخدم الاثنان لفظ «السعادة» فى التعبير عن حاليهما، غير أنه شتان بين من يستمع لفترة محدودة، بلذة مؤقتة، يعقبها فتور وخمود وسَعى إلى لذة أخرى، وبين من يجد الراحة الدائمة فى وضع معين لا يريد معه شيئًا آخر، ويحس

بأن لديه كل ما يحتاج إليه، ويعرف من السلام الداخلى، ومن انسجام الروح والتناسق الكامل بين كل مكوّناتها، ما يغدو من الصعب معه على أىّ حدث خارجى أن يؤثر فيه أو يضرّه.

خامسًا: قد يرى البعض السعادة فى نيل غرض معين، أو امتلاك شيء بعينه، كالثروة أو اللذة أو السلطة أو الشهرة أو من يعشقه. وحتى لو أنه لم يجعل من هذا الغرض أو الشيء سبيله الأوحد إلى السعادة، فهو يحلّه مكان الصدارة فى قائمة أولوياته. غير أن ربط السعادة بهدف واحد مع إغفال أو إهمال كل اعتبار عداه يُفسد من معنى السعادة، ناهيك عن تعريض المرء لكارثة كبرى فى حال تعذّر تحقيقه، أو فقده بعد تحققه ونيله.. قد لا يرغب البخيل إلا فى المال وحده، ويعتبر نفسه سعيدًا إن هو استطاع أن يكوّن منه ثروة طائلة. غير أن عدم إنكارنا لحقه فى وصف نفسه بالسعادة لا ينفى حقّنا فى اعتباره واهمًا. فهو مع كل ثروته قد يحرم نفسه إبان تحصيلها من الأصدقاء أو المعرفة، أو الفضيلة أو الصحة، أو السمعة واحترام الآخرين وحبّهم، ويعرّض نفسه للقلق والانشغال على احتمال فقدها. والراجح أن يؤدى تركيزه اهتمامه كله على هدف واحد إلى إحباط الكثير من احتياجاته الأخرى، وهى احتياجات قائمة لديه باعتباره بشرا، ولابدّ له من إشباعها وفق درجة أهميتها التى تحدّدها الطبيعة البشرية نفسها، بحيث تضحى مقوّمات السعادة واحدة بالنسبة للكافة، وبالرغم من اختلاف ظروف الأفراد وطبيعة تكوينهم. واختصارا فإنه ما من هدف معين ينبغى التركيز عليه دون غيره تركيزًا مخلاً ومبالغًا فيه، حيث أن عقوبة الحصول على قدر هو أكثر مما ينبغى

الحصول عليه من شيء واحد هو حرمان النفس من احتياجات أخرى لازمة.

هل السعادة ممكنة؟

ثم أختم هذا الفصل بإشارة إلى اعتقاد بعض المفكرين بأن السعادة هدف وهمي من الصعب، إن لم يكن من المستحيل تحقيقه، إزاء كل ما يحيط الحياة البشرية من شرور، ويتهدّد الإنسان في كل لحظة من متاعب، وإزاء الضعف الكامن في الإنسان، والشر المهيمن على طبيعته. وقد ذهب سوفوكليس في إحدى مآسيه إلى أن خير ما يمكن أن يحدث للمرء على الإطلاق هو ألا يولد، فإن وُلد فخير ما يمكن أن يحدث له هو أن يعود أدراجه سريعا من حيث جاء! غير أن معظم من قال بمثل هذا هم من مفكري العصور القديمة، وهي عصور عرفت الرق وعبودية المرأة، وتكرّر الأوبئة والطواعين، وانتشار المجاعات، وكثرة الحروب والصراعات، وغلبة الفقر والأمية، ووهن الصلة العاطفية بين الأزواج، وبين الآباء والأبناء، والسلطة الاستبدادية للحكام، وضعف تأثير الرأي العام، والجهل بحقوق الإنسان أو الاستخفاف بها، وقسوة العقوبات، ووحشية معاملة المجانين والسجناء، وسوء الأحوال الصحية، والجهل بسبل الوقاية من الأمراض، وجلد الشعراء وقطع الرءوس لمجرد نزوة من ولاة الأمر، وإحراق المبتدعين من المفكرين وتقطيع أوصالهم، وسوء حال المسنّين والعجزة، وقلة وسائل الراحة والترويح عن النفس..وكلها أمور أثقلت كاهل الإنسان، وفتت في عضده، وطبعت نظرته إلى الحياة بطابع سوداوي تشاؤمي.

□□□

فإن كنتُ هنا أختلف مع ما ذهب إليه سوفوكليس، فلستُ أقلّ اعتراضًا على قوله تشيسترتون: «إن السعادة، كالدين، سرّ من الأسرار الإلهية، لا ينبغى أن يكون للمنطق فيها دَخْلٌ».. ففى زعمنا أن للسعادة منطقًا يسهل إماطة اللثام عنه، ومقوّمات يمكن بالدراسة بيانُها وسبر أغوارها.

- ٢ -

المزاج والشخصية

فن السعادة هو فنّ ترتيب حياتنا ترتيبًا يضمن لنا أكبر قدر ممكن من المتعة والنجاح، ويجنّبنا أكبر قدر ممكن من الألم والمتاعب والفشل.. غير أن كلمة «الترتيب» تُوحي بعمل إرادىّ، في حين نجد أن جانبًا هامًّا من مقوّمات السعادة لا يتوقّف على إرادة الفرد، ويمكن اعتباره هبةً من هبات الطبيعة، كرجاحة العقل، ونفاذ البصيرة، وسلامة الطوّية، واستواء الشخصية، واعتدال المزاج. وكلّها ميزات إن قورن صاحبُها بصاحب الثراء الطائل، والمكانة الرفيعة، والشهرة الذائعة، والسلطة الواسعة، بدا كالملك في الحقيقة بالمقارنة بالمثل الذى يؤدّى دورَ الملك على المسرح أو الشاشة.

فالعنصر الأساسىّ فى سعادة الفرد هو طبيعة تكوينه: مزاجه وشخصيته اللذان هما المنبع الدائم لرضائه أو سخطه، واللذان يشكّلان الحصيلة النهائية لانطباعاته ورغباته وأفكاره، بينما لا نجد للأحداث الخارجة عنه إلاّ تأثيرًا غير مباشر، لا يصل إليه إلاّ عبر هذا المزاج وهذه الشخصية، فيتلوّن بلونهما.. وهذا هو السبب فى أن الأحداث الخارجية الواحدة، والظروف نفسها، يختلف تأثيرها باختلاف كلّ فرد عن غيره.. وقد سبق لشكسبير فى مسرحيته «تاجر البندقية» أن ذكر أن ثمة من الناس من ينفجر بالضحك لأهون الأسباب وأبسطها، ومنهم من إذا قصّوا عليه نكتة ظلّ عابسا متجهّم الوجه وإن أقسم الفلاسفة له أنها نكتة ظريفة!

«بَعْدِك يا عين، ما طلعتْ شمس»

كذلك فإن لدى الفلاح المصرى مثلاً هو أصدق دلالة على ما نقول، وهو «بَعْدِك يا عين، ما طلعت شمس». ومعناه أن العالم الذى يعيش المرءُ فيه يتشكّل أساسًا وفق طبيعة نظرته إليه؛ وبالتالى فإن نفسَ العالَم يبدو مختلفًا فى أعين الأفراد المختلفين. فهو فى نظر هذا صحراء جرداء مسطّحة تبعث على الملل والضيق، وفى نظر ذاك جنّة مُورقة شائقة مفعمة بالمغزى والمعانى.. وكثيرا ما يسمع البعض منّا أو يقرأ عن التجارب المتنوّعة الشائقة التى مرّ بها غيره أثناء حياته، فيغبطه أو يحسده، ويتمنىّ أن تكون هذه التجارب والخبرات قد مرّت به هو، وكان الأَوْلى به أن يغبط هذا الغير على ما يتمتع به من مزاج متألّق، واهتمامات ذهنية قوية، صبغت تلك الخبرات بصبغتها، فبدت عند وصفه إيّاها رائعة طريفة، غنيّة بالمعانى.

فكل حدث يقع، وكل مؤثّر خارجى، يتطلب تفاعل عنصرين: شخص وموضوع، هما رغم اختلافهما متّحدان اتحاد الأكسجين والهيدروجين فى الماء. فإن كان الموضوع واحدًا واختلف تقييم الأشخاص له، وإحساسهم به، وموقفهم منه، بدا هذا الموضوع الواحد وكأنما هو موضوعات مختلفة شتى . إنه متى كان الشخص ذا مزاج حزين مكتئب، رأى المآسى والمتاعب فى أمور يرى فيها صاحب المزاج المعتدل صراعًا شائقًا ممتعًا جديرًا بالدراسة، ولا يرى ثالث فيها أىّ مغزى أو معنى.. وكثيرًا ما كان أبو حنيفة النعمان يقول لتلاميذه: «لو رأى السلاطين ما نحن فيه من لذّة العلم، لقاتلونا عليه بالسيوف!». غير أن الغالب أن

هؤلاء السلاطين لو حصلوا بأسيافهم على كل ما فى هذه الدنيا من مجلدات للعلوم، لحالتْ ضحالةُ قرائحهم دون أن يجدوا فى قراءتها من اللذة ما كان يجده أبو حنيفة وتلاميذهُ فى كتبهم ومحاوراتهم.. كذلك فإن الغنىّ الغبىّ محدود الذكاء والمخيلة، لن يجد فى ضياعه وقصوره من المتعة ما توفّر لسرفانتيس مثلا وهو يؤلف رائعته «دون كيخوته» بين جدران السجن الضيّق الذى ألقى فيه.

وتظل حياة كل فرد منا وشخصيته تحملان نفس الطابع من البداية إلى النهاية مهما اختلفت عليه الظروف الخارجية. فما هذه الظروف الخارجية إلا كالتنويعات على اللحن الأساسىّ فى المعزوفة الموسيقية.. وشخصية الفرد هى التى تحدّد سلفًا مدى قدرته على الإحساس بالسعادة، خاصة قواه الذهنية التى تتحكّم إلى الأبد فى قابليته للاستمتاع بأسمى ضروب اللذة طرًّا.. فإن كانت هذه القوى محدودة، فلن يُجدى كثيرًا أىّ جهد يبذله، ولا ما يمكن للناس حوله أو لثرائه وجاهه أن يوفّروه له من متع هى فى أغلبها متع حسّية، أو صحبة أمثاله من محدودى الأفق.. وفى المثل الشعبى: «الحمار مهما سافر، موش حايرجع حصان!» ذلك أن أرقى صنوف المتع، وأكثرها تنوّعا، وأبقاها على الزمن، هى المتع العقلية، مهما ظن الشباب عكس ذلك، وهى متع تتوقّف درجتها على قدر ما يتمتع به المرء من ملكات ذهنية تصحبه أينما حلّ، فى الوطن والغربة، بين الناس وفى خلوته، لا يمكن لأحد أن يُضفيها عليه، أو أن يسلبه إيّاها. فهى إذن أكثر ما يملكه حيويّة وأهمية، وأقلها قابلية للتعويض.

ألدّ أعداء السعادة

نعم نحن فى حاجة إلى المال من أجل إشباع بعض الاحتياجات الضرورية والطبيعية. أما فيما عدا ذلك فإن تأثير الثروة فى قدر سعادتنا تأثير محدود للغاية، بل هى قد تقلّل من سعادتنا بالنظر إلى ما يقتضيه الحفاظ على الثروة من قلق يصعب تجنّبه. والواقع أن معظم أولئك الذين نالوا الغنى فجاوزوا بذلك مرحلة الصراع مع مشكلات الفقر، ليسوا فى الحقيقة بأقل تعاسة من الفقراء. ذلك أن عقولهم خاوية، ومخيلتهم صدئة، لا يعرفون الاحتياجات العقلية، ولا يعرفون بالتالى معنى الملذات العقلية. وإنه لمن السهل علينا فى مصر بالأخص أن نرصد وندرس حالة هؤلاء بعد أن نال الثراءَ فى ظل سياسة الانفتاح نوعٌ من الناس هم بطبيعتهم وبحكم نشأتهم وتكوينهم لا يعرفون من المتع غير المتع الحسّية، ويظنون أنفسهم قادرين على تحقيق السعادة لأنفسهم ولعائلاتهم عن طريق المزيد فالمزيد من هذه المتع التى يخالونها ستعوضهم عن غيرها.. سنجد أن الهمّ الأكبر لدى هؤلاء هو فى استهلاك الفاخر من الطعام والشراب، وفى النشاط الجنسى، واقتناء الأثاث وأحدث طراز من السيارات، وشراء الكماليات من السلع. غير أنهم إذ يُغرقون أنفسهم فى هذه الملذات الحسية، سرعان ما يدركون أنها لا تدوم لأكثر من أيام معدودات، أو ساعات معدودات، وأنها، علاوة على ذلك، باهظة الكلفة، ولم تكفهم شرّ الملل.

ذلك أن ألدّ أعداء السعادة فى هذه الحياة الدنيا هما الألم والملل، بحيث يمكن وصفهما بأنهما قطبا الحياة، متى ابتعدنا عن أيّهما اقتربنا

من الآخر. فإن كانت الحاجة تسبّب للفقراء الألم، فإن المرء لا يتجاوزها حتى يبدأ شعوره بالملل. وأكثر الناس عرضةً للملل هم أفراد الطبقات العليا الذين تُقلقهم فكرة كيفية قضاء وقت فراغهم.. لذلك فإنه نادرا ما يطيق الغنىّ البقاءَ فى داره. فهو فيها يستشعر الملل. غير أنه ما يخرج منها فى طلب التّسلية، حتى يدرك أنه فى الخارج ليس بأسعد حالا.. لذا تراه يبادر بالتوجّه إلى ضيعته فى الريف، أو إلى فيلته فى الغردقة أو الساحل الشمالى، يقود سيارته إليها فى أقصى سرعة وكأنما يتوجّه إليها لإخماد حريق فيها. حتى إذا ما بلغها، وقضى بها بضع ساعات، عاد إليه الإحساس بالملل، فيغادرها عائدًا أدراجه، ويقود سيارته فى أقصى سرعة إلى داره بالقاهرة وكأنما يريد إخماد حريق فيها.

فالشخص العادى إذن إنما ينشُدُ السعادة فى أمور خارجة عنه، كالثروة، والمنصب، والشهرة، والنفوذ، وغير ذلك. وهو حين يفقد ما ناله منها، أو ينالها فلا يجد فيها السعادة التى ظنّها قائمة بها، يتحطم أساس سعادته. وبعبارة أخرى، فإن مركز الثقل عنده هو خارج نفسه، وهو يتغيّر بصفة مستمرة مع كل رغبة يشعر بها، أو نزوة تعنّ له.. فهو اليوم مشغول بفيلّته فى «مارينا»، وغدًا بشراء طراز جديد من السيارات، وبعده بإقامة حفل عشاء راقص لأصدقائه، وبعده على مائدة القمار يضاعف رهانه، وبعده بالاستعداد للسفر إلى الخارج. وإذ تتبدّد أوهامه تدريجيًّا إذ لا يجد سعادة فى هذا الأمر أو ذاك، يجد المتعة فى إيهام الغير ممن هم ليسوا فى ثرائه بأنه يجد سعادة بالغة فى كل هذه الأمور، فى غناه أو رتبته، أو نفوذه أو سلطانه، أو ضيعته أو فيلته، أو فى سفره

أو علاقاته الاجتماعيـة أو الجنسية، فيهمّـه أن يُظـهر كـل ذلك لأعـين الناس، وينتهى به الحال إلى الرضا بحسد الناس له، وتوهّمـهم أنـه لابدّ إنسان سعيد.

وهو أحيانا، وقد أدرك كَـذِبَ الشّهوة والـثروة، يلتمـس التسـلية فـى نشاط ذهنى رفيع، كالموسيقى أو القراءة، أو دراسـة علـم مـن العلـوم، أو زيارة المعارض والتردّد على المتاحف.. غير أن هذا النوع مـن النشـاط مع أمثاله مـن محـدودى القـدرات العقليـة سـيظل دائمـا ميـلاً سـطحيًّا غـير طبيعـى، لا يمكـن مقارنتـه بالنشـاط الفنـىّ أو العلمـى الخـلاّق، فيعـاوده الإحساس بالملل، ما لم يكن الكتاب الذى يقرؤه روايـة بوليسـية، ومـا لم تكن الموسيقى التى يسمعها من ذلك النوع الشائع فى مصر فى يومنا هذا، مما لا يستهدف تحريك الوجـدان والمشـاعر، وإنمـا تحريـك الأرداف والأكتاف. وهو نوع إنما شاع لتلبية احتياجات أفراد الطبقة الجديدة فـى مجتمعنا، ممن حصّلوا الثروة فعرّضوا أنفسـهم للملـل، وظنّـوا أن ترقيـص الرّدف قد يصرف الملل عنهم.

مثل هذا الشخص سيسعى دومًا إلى صحبة أمثاله فى الميول والنزعات. أما صحبة العقلاء والمفكرين وذوى المواهب فسيجدها ثقيلة وعبئًا لا يطاق. فصحبتهم سَتُشْعِرُه بنقصه، وثقب نظرتهم ستجعله عـاجزًا عـن خداعـهم وإيهامهم بأهميته أو بأنه سعيد. وفشل تجاربه وخبراته فـى مضمـار نيـل السمادة سيجعله يحسـدهم. غـير أنـه سيُخفى حتـى عـن نفسـه هـذا الإحساس بالحسد، بل ولن يبذل أدنى محاولة فى سبيل التشبّه والاقتداء بهم، لعلمه أنه لن يستطيع إلى ذلك سبيلاً، فيظل إلى آخـر عمـره يفضّـل

البحث عن السعادة فى الثراء والمركز والسلطة والشهرة والنفوذ، زاعما أنها أسمى ما يمكن للحياة أن تقدّمه للمرء من هبات.

المزاج والملكات

إن كل إنسان منا هو حبيس ذاته ووعيه، لا يستطيع الخروج عنهما أكثر مما يستطيع الخروج من جلده. وحيث أن كلّ ما يحدث وكل ما هو قائم خارج الفرد إنما يصل إليه عن طريق وعيه، فإن أهم شيء بالنسبة له هو طبيعة هذا الوعى وتكوينه. والواقع أن المزاج المعتدل الرائق الأميل إلى المرح والابتهاج هو أكثر الأشياء مسئولية عن سعادتنا، وأقدرها على تعويض افتقارنا إلى النّعم الأخرى، خاصة متى اقترن هذا المزاج المعتدل بالصحة البدنية.. فالصحة تَجُبُّ فى الأهمية كل ما عداها من هبات الطبيعة، بحيث يمكن القول بأن الشحاذ قوىّ الصحة أسعد حالا من الملك العليل. فإن ارتبط المزاج المرح بالجسم السليم، والعقلية القوية النشطة النفّاذة التى ترى الأمور على حقيقتها، والرغبات المعتدلة القليلة، والضمير الهادئ المستريح، أمكن الإشارة إلى كل هذا على أنها الهبات التى لا يمكن لأية مزايا أخرى أن تعوّضها أو تعادلها فى الأهمية.

يقول الفيلسوف الإغريقى إيبيكتيتوس إن المرء لا يتأثر بالأحداث والأشياء، وإنما بفكرته عن الأحداث والأشياء. فالمؤكد أن صاحب المزاج الحزين المكتئب سيصيبه الحزن إزاء المحزن من الأحداث، والغالب أنه لن يفرح كثيرا بسعيدها. أما صاحب المزاج المرح فلن يقلق كثيرا إزاء عواقب الأمور، غير أن فرحه سيكون عارما بالعواقب البهيجة. فإن فشل الأول فى واحد من مقاصده، ونجح فى تسعة مقاصد أخرى، فسيتُعسه

فشل الواحد. فى حين لو فشل الثانى فى تسعة أعشار مقاصده، ونجح فى واحد، فإنه سيجد العزاء والراحة فى نجاح الواحد. فكل الملذّات هى عند الإنسان ذى الشخصية المكتئبة غير المستوية هى كالماء الزلال فى فم المريض. أو كما يقول أوليفر جولد سميث فى ختام قصيدته «المسافر»:

«بكلّ مكان نحلّ فيه نجدنا إزاء أنفسنا محصورين داخلها، لا نجد السعادة أو المتعّة إلا من خلالها».

وكما أن الدولة قد توصف بالغنى إن هى استغنت بمصادر ثروتها عن كافة الواردات من الخارج أو عن معظمها، فقد نعرّف الإنسان السعيد بأنه الشخص الذى يمتلك من عناصر الثراء الداخلى ما لا يحتاج معه إلا إلى القليل من العالم خارجه.. وقد حُكى عن سُقراط أنه حين توجّه مرّة إلى السوق، وتأمّل مئات السلع المعروضة فيه، هتف بأصحابه قائلاً: «ألا ما أكثر الأشياء الّتى لا أريدها!». لهذا عرّف أرسطو السعادة بأنها الاكتفاء الذاتى. فكل ما يحسبه الناس من المصادر الأخرى للسعادة هو بطبيعته غير موثوق منه، مؤقت لا يمكن الاعتماد على دوامه أو استمراره مدة طويلة، أو هو خاضع للحظ، قابل للنفاد، أو غير قابل لأن تناله الكافة، أو هو عرضة لانفراط عقده مع التقدم فى السن، فيقول عندئذ ما أجاب به الخليفة عبد الملك بن مروان فى شيخوخته رجلا سأله عن صحته:

«أجدنى وقد اسودّ منّى ما أحببتُ أن يَبْيَضّ، وابيضّ منى ما أحببتُ أن يسودّ، واشتدّ منى ما أحببتُ أن يلين، ولان منّى ما أحببتُ أن يشتدّ!» .

حينئذ لا يبقى قائمًا مع المرء غير ما يمتلكه من مواهب وقدرات ذهنية وروحية.. فالإنسان الغنىّ بذاته هو كالحُجرة المضيئة الدافئة فى ليلة من ليالى الشتاء الباردة، لا يترك ثراءُ عقله مجالا للإحساس بالملل، وهو الذى يجد نفسه إزاء حشد من الأمور والمعضلات الداعية إلى التفكير والتأمل، أو إلى صوغها فى قالب فنى.. فهو إذ ينهمك فى ملذاته العقلية والفنية، تقلّ حاجته إلى الآخرين، وإلى الأشياء خارجه، يرحّب بالعزلة وبوقت الفراغ اللازمين للتفكير والإنتاج الفنى، ويرى ما عداهما غير ضرورى بل وعبئًا ثقيلاً عليه، وأن الواردات من الخارج، بالنسبة له كما بالنسبة للدولة، باهظة الكلفة، موجبة للاعتماد على الغير، حاوية للمخاطر، مثيرة للمتاعب..

وقت الفراغ وتنمية الملكات

إن الإنسان الثرىّ محدود القدرات الذهنية لا يكاد يتجاوز مشكلات الفقر حتى يبدأ فى سعيه وراء ما يلهيه ويشغله عن ذاته، كارهًا للخلوة التى يضطر أثناءها اضطرارًا إلى مواجهة فقره الداخلى، وهو ما ليس بوسعه التخلّص منه، ولا تجنّب معاناته إلا بالاستغراق فى مختلف صنوف الملاهى والتسلية والملذّات الحسّية وتحصيل الكماليات مهما أدّى به هذا التحصيل إلى التبذير والسّرَف. فأوقات الفراغ هى عنده دائمًا عبء ثقيل، فى حين يراها الفيلسوف والمفكّر والفنان ثمرة هذا الوجود، وأثمن ما فى الكون، فيحاولون استخدامها واستغلالها قدر الإمكان.. وهم يعلمون أن سعادة الإنسان الحقيقية هى فى ممارسته الحرة لأسمى ملكاته، وأنه إن كانت القدرات الذهنية والفنية هبات من الطبيعة

لا دخل لإرادة الفرد فيها، فإنه لما يخضع لإرادتنا قرارُنا بأن نستغل قدر الإمكان هذه القدرات والملكات الشخصية، وأن ننشد لها الكمال ما وجدنا إلى ذلك سبيلاً، فلا نختار لأنفسنا من الموقع أو العمل أو أسلوب العيش إلا ما نعلم أنه الأنسب لتنميتها، ولا نطلب من الأهداف إلا ما نثق فى أنه سيغذّيها ويحرّكها.

□□□

خلاصة القول هى أن ثراء الروح والعقل - فيما يبدو لنا - هو الثراء الحقيقى الوحيد، وأن صاحب القدرات العقلية، والملكات الفنية، والثروة الروحية الداخلية، هو أسعد الناس جميعًا. فهو لا يطلب من دنياه خارجه غير أن تتيح له من وقت الفراغ والهدوء والاكتفاء المادى ما يسمح له بتنمية ذاته، والاستمتاع بثروته، واستخدام مَلَكاته.. وبعبارة أخرى، هو لا يريد منها غير أن تأذن له بأن يكون نفسه، طيلة حياته، فى كل يوم، وفى كل ساعة.. أما ما عدا ذلك فقليل الأهمية، لا يجدر به أن يلتفت إليه.

- ٣ -

السّعادة العائلية

لا شكَّ عندى فى أن عاطفة الحب التى يشعر بها الآباء نحو أبنائهم، والأبناء نحو آبائهم، يمكن أن تكون أحد المصادر الرئيسية للسعادة. غير أننا إذ نتطلّع حولنا فى زمننا هذا نجد أن العلاقة بين الآباء والأبناء هى فى تسعة أعشار الحالات مصدر لتعاسة الطرفين معاً، وأنها فى تسع وتسعين من كل مائة حالة مصدر تعاسة طرف واحد منهما على الأقل.. والواقع أن عجز العائلة عن أن توفّر لأفرادها السعادة التى هى قادرة من حيث المبدأ على توفيرها، هو من أبرز أسباب شيوع مشاعر السخط وعدم الرضا فى المجتمع الحديث.

وللتعاسة العائلية فى عصرنا من الأسباب ما لا يكاد يمكن حصره؛ من نفسية واقتصادية واجتماعية وحضارية، بل وسياسية أيضاً. إذ لاشك فى أنه فى الدّول التى يسودها القهر السياسى والاجتماعى والاقتصادى يميل الرجال إلى اعتبار عائلاتهم المجال الوحيد المتبقّى لهم لممارسة سلطانهم واستبدادهم، والتنفيس عما يشعرون به من قهر، فتضحى الزوجات والأبناء فى حكم الإماء والأسرى فى قبضتهم. وعلى طرف نقيض نجد أنه فى المجتمعات الديموقراطية الحرّة التى تفشّت فيها نظريات تربوية كنظريات دكتور سبوك، لم يعد الآباء واثقين من حقوقهم تجاه أبنائهم، ولا من طبيعة التربية الحكيمة لهم، كما لم يعد الأبناء يشعرون بأن من واجبهم طاعة الآباء واحترامهم. فقد ولّى زمان الطاعة الكاملة التى كانت

تعدّ فى الماضى من المسلّمات، وتؤخذ على أنها أمر مفروغ منه. بل إن الآباء أنفسهم باتوا يخشون العواقب الضارة بنفسية أطفالهم مما قد يترتب على هذه الطاعة الكاملة. وهم يستشعرون القلق فى كل مرة يحضنون فيها أو يقبّلون أبناءهم خشية أن يصابوا بعقدة أوديب، ويستشعرون القلق متى أحجموا عن احتضانهم وتقبيلهم خشية أن يصيبهم الإحباط والغيرة. فإن رأوا الطفل يمصّ إصبعه انتابهم الجزع إذ يحاولون تفسير مصدر هذه العادة، وتنتابهم الحيرة إذ يفكرون فى كيفية علاجها وتخليصه منها.

فالأبوة التى كانت فى الماضى أمراً بسيطاً وسهلاً نسبيا حين كان الآباء لا يتردّدون فى ممارسة سلطانهم، أضحت اليوم – خاصة فى المجتمعات المتقدمة – وضعاً مفعماً بالشكوك والقلق وتأنيب الضمير والحذر والتردّد، بحيث أفقدها معظم ملذّاتها ودواعى سعادتها، وبحيث أضحى هذا من أسباب هبوط معدّل المواليد فى الدول الغنية المتحضرة:

وهل أنا مسرور بقرب أقاربى
إذا كان لى منهم قلوبُ الأباعِدِ ؟
(أبو فراس)

ففى تلك الدول (حضارة الجنس الأبيض) بتنا نلمس ظاهرة فريدة، وهى أنه بازدياد استيعاب الرجال والنساء فيها لهذه الحضارة يستفحل العقم فيهم. ذلك أن أكثر الناس تحضّراً هم أقلّهم إنجاباً، وأقلّهم تحضّرا أكثرهم إنجاباً. ولذا نجد فى زماننا هذا أن أذكى شرائح المجتمع فى الدول الغربية تميل إلى الانقراض، وأن تعداد سكان تلك الدول فى

مجموعها يميل إلى الانخفاض، ولا يعوّض عن هذا الانخفاض سوى قبول المهاجرين إليها من الدول الأقل تحضّراً.

قد تنبرى الحكومة ورجال الدين هناك (كما يحدث فى دولة إسرائيل). بنصح الناس بزيادة نسلهم باعتبار ذلك واجباً قوميًا. غير أن القليلين جدًّا من الرجال والنساء هم الذين ينجبون الأطفال استجابة لدواعى الواجب القومى. وإنما هم ينجبون حين يحدوهم إلى ذلك الأمل فى أن يزيد الأطفال من سعادتهم، أو حين يجهلون سبل تجنّب الإنجاب. وقد كاد الجهل بسبل تجنّب الإنجاب يختفى تماماً فى العصر الحديث. وإذ ليس بوسع الحكومات أو رجال الدين أن يُحولوا دون هذا الانخفاض فى معدل الإنجاب، فقد بات لزاماً من أجل ضمان تكاثر أفراد الطبقات المتحضرة والمثقفة الذكية أن تعود الأبوّة مصدر سعادة أكيدة للأبوين.

متاعب الأمومة

لطالما كانت النساء فى الغرب فى الماضى، وفى الشرق إلى يومنا هذا، يضطررن إلى قبول الزواج فرارًا بأنفسهن من أوضاع معيشية غير كريمة تتعرّض لها العانس بسبب اعتمادها الاقتصادى على الأب أولاً، ثم على أخ قد يوفر المأوى لها عنده ولكن عن غير طيب خاطر ، فتجد العانس نفسها عندئذ دون عمل مجدٍ تشغل به يومها، ودون حرية الاستمتاع بالدنيا خارج دارها. أما اليوم، خاصة فى الدول المتقدمة، فإن بوسع العانس متى كانت قد تلقّت قسطاً طيباً من التعليم أن تهيّئ لنفسها حياة مريحة كريمة خصبة دون حاجة إلى موافقة الأبوين. والواقع أن الآباء منذ

فقدوا سلطتهم الاقتصادية على بناتهم اضطروا إلى الحد من التعبير عن استنكارهم الأخلاقى لسلوكهن، إذ ليس ثمة جدوى من توبيخ من هو على غير استعداد للاستماع إليه. وهكذا أضحى بوسع الشابة غير المتزوجة اليوم أن تعيش عيشة راضية، ما لم تكن لديها رغبة قوية فى إنجاب الأطفال.

وتقودنا هذه النقطة الأخيرة إلى مشكلة ضخمة نجمت إلى حد كبير عن ندرة الخدم والمربيات فى عصرنا الحديث. فالأم بطبيعتها شديدة الارتباط ببيتها، وعليها أن تؤدى فيه مئات الأعمال الصغيرة مما لا يتفق فى الكثير من الحالات مع قدراتها ومؤهلاتها وثقافتها. ويكاد يكون من المحال دون مخاطرة منها أن تترك طفلها للخدم ينهضون إزاءه حتى بأبسط المهام المتصلة بالنظافة والصحة، ما لم تُلحق بخدمتها مربية مدرّبة على مستوى عال وتتقاضى أجراً باهظاً قد يعادل أو يفوق مرتبها هى. والملاحظ أن الأم التى تفضّل العمل خارج بيتها على رعاية طفلها بنفسها تُفسد مزاجها بكثرة تأنيبها للخدم على إهمالهم لواجباتهم. أما إن هى قررت رعاية الطفل والدّار والقيام بذلك الحشد من المهام التافهة التى هى من مقوّمات هذه الرعاية، فإنها تكون سعيدة الحظ إن هى لم تفقد جمالها ورونقها وثلاثة أرباع ذكائها من جراء هذا النوع من النشاط. والمحزن حقا أنه كثيرا جدا ما يؤدىّ انشغال المرأة الكامل بمسئولياتها المنزلية والتربوية إلى أن تصبح فى النهاية عبئًا على زوجها، بل ومصدر ضيق لأطفالها. فحديثها فى هذه الحالة كثيراً ما تستغرقه مشاكلها اليومية، وهو حديث يملّه معظم الناس حولها. أضف إلى ذلك أن كثرة التضحيات التى تبذلها فى سبيل رعاية أطفالها هى ماثلة دوماً أمام عينيها، وتدفعها

إلى أن تطالبهم بنوع من المكافـأة عليـها أو التعويـض عنـها، وهـو مـا قـد لا يكونون مستعدين لتقديمـه. كذلـك فـإن انشـغالها معظـم الوقـت بـأمور سطحية وتفاصيل تافهـة يجعلـها هـى نفسـها تافهـة كثـيرة الشـكوى والسخط، متهيّجة الأعصاب.. وكلها أمور نرى فيها ظلماً فادحاً للمـرأة: فهى إن أدّت واجباتها كاملة تجاه بيتها وأفراد عائلتها أزعجتهم وفقدت حبّهم، وإن هى أهملت هـذه الواجبـات فـاحتفظت بمرحـها وحيويتـها، وجمالها وفتنتها، أبقت على حبهم لها وتعلّقهم بها!

الأبوّة مصدر رئيسي للسعادة

وثمة مشكلات أخرى مما تعرفه الكافـة تنجـم عـن إنجـاب الأطفـال. فأولئك الذين يعيشون فى المدن يسكنون فى العادة فى شقق ضيقة المساحة ليس فيها من المكان الكافى للهو الأطفال، ولا المكان النـائى الـذى يمكـن للآباء فيـه أن يتجنّبـوا ضوضـاءهم. وهنـاك مشـكلات المراهقـة، والأعبـاء المادية فى زمن صعب، والخلافات بين الزوجين حـول أسـلوب التربيـة، والقلـق المسـتمر النـاجم عـن الأزمـات الصحيـة، وانحـراف السـلوك، واضطراب التعليم، وتأخر سن الزواج، ومشـكلات الجنـس، والافتقـار إلى الاحترام والطاعة، واضطرار الأبوين بسبب المسئوليات المـتزايدة إلى تقبّـل أوضاع ما كـانوا ليتقبّلونـها لولاهـا. فـالولد - كمـا جـاء فـى الحديـث (مبخلة مجبنة)! وقـد حُكـى أن الزّاهـد سُـفيان بـن عُيَيْنَـة حـين شـوهد منتظرًا فى ذلة على باب السلطان قيل له مـا هـذا موقفـك، فقـال: وهـل رأيتم ذا عيالٍ أفلح؟!

ومع كل هذا، وبصرف النظر عن ظروف الزمن الراهن وملابساته، ففى ظننا أن بوسع الأبوة والأمومة أن تكونا من أعظـم وأبقـى مصـادر السـعادة

التى توفرها الحياة لنا، خاصة بالنسبة للنساء.. قال ابن المبارك وهو مع جيش المسلمين فى غزو: (تعلمون عملا أفضل مما نحن فيه؟) قالوا: (ما هو؟) قال: (رجل ذو عائلة قام من الليل فنظر إلى صبيانه نياما متكشّفين، فغطّاهم بثوبه).. وقيل للزاهد إبراهيم بن أدهم: (طوبى لك فقد تفرّغت للعبادة بالعزوبة). فقال: (لرَوْعةٌ منك بسبب العيال أفضل من جميع ما أنا فيه!).. هذا إلى أننا نجد فى الكثير من الكتب المقدسة انشغالاً كبيراً من جانب الرجال والنساء بأن يخلّفوا وراءهم نسلا، وهو ما يدل على أن إنجاب الأطفال كان دائماً يُعتبر من أهم أشراط السعادة. ﴿قال ربّ أنّى يكون لى غلامٌ وكانت امرأتى عاقراً﴾. ﴿ وإنى خِفت الموالى من ورائى وكانت امرأتى عاقراً﴾. ﴿فأقبلت امرأته فى صَرَّة فصكت وجهها وقالت عجوزٌ عقيمٌ﴾.

فالواضح أن المرء كى تتوفر السعادة له فى هذه الدنيا - خاصة متى ولّى الشباب - يحتاج إلى إحساس بأنه ليس مجرد فرد فى عزلة عما حوله ومن حوله، وعما قريب ينتهى أجله، وإنما هو جزء من تيار الحياة المتدفق من مصدر أو بداية ما، إلى مستقبل بعيد لا يُعرف منتهاه.

قد يكون صحيحاً أن الشخص القادر على النهوض بإنجازات عظيمة، فكرية أو فنية أو سياسية أو عسكرية، تطبع العصور التالية بطابعها وتؤثر فيها تأثيراً عميقاً، قد يرى فى إنجازاته إشباعاً لتلك الحاجة التى نتحدث عنها. غير أنه بالنسبة لغالبية البشر، للعاديّين من الرجال والنساء العاجزين عن تقديم إسهام خالد، نجد إنجاب النسل هو السبيل الوحيد لإشباع تلك الحاجة. فالغالب أن يشعر من لم ينجبوا (سواء عن

عمد أو رغما عنهم) بأنهم قد انفصلوا بذواتهم عن تيار الحياة ، وبأن المنية إن جاءتهم قضت على كل شيء. فالحياة التى ستستمر بعدهم لا تعنيهم فى قليل أو كثير. ولذا تبدو لهم أعمالهم وكل نواحى نشاطهم فى الدنيا تافهة لا قيمة لها. أما بالنسبة لمن له أولاد وأحفاد يحبّهم، ويأبه لهم ولمستقبلهم، فإن المستقبل ذو أهمية عظيمة. ولذا يمكن القول بأن الشخص الذى تتجاوز اهتماماته حدود حياته يشعر بأنه قد وسّع من هذه الحدود، وأضاف إلى حياته بعداً جديداً. وعندئذ يتبدّد إحساسه بتفاهة شأنه وشأن نشاطاته، وهو إحساس كفيل بأماتة كل عواطفه أو جُلّها.

□□□

وأساس العائلة بطبيعة الحال هو أن الآباء يشعرون تجاه أطفالهم بمودّة خاصة تختلف فى طبيعتها وقدرها عن المودة التى يشعر الزوج بها نحو زوجته، أو الزوجة نحو زوجها، أو الاثنان نحو أطفال الآخرين.. صحيح أن بعض الرجال قد لا يشعرون بعاطفة قوية من الحب تجاه أبنائهم، وأن بعض النساء قد يكنّون من الحب لأطفال غيرهن ما يكنّونه لأطفالهن لو أنجبن. غير أن القاعدة العامة هى أن حبّ الآباء والأمهات لأبنائهم يختلف عن أىّ حبّ قد يشعرون به تجاه إنسان آخر. وهو عاطفة يعرفها بعض الحيوانات والطير كما يعرفها البشر.

هذه المودّة الخاصة التى يحملها الآباء لأبنائهم هى ذات قيمة ضخمة سواء بالنسبة للآباء أو بالنسبة للأبناء. وقيمتها بالنسبة للأبناء تتمثل فى أنها، إلى حد بعيد، هى العاطفة التى يمكن الاعتماد عليها أكثر من

غيرها من صنوف المودّة والحب. فأصدقاء المرء إنما يحبونه لشمائله وطبعه ومزاياه. وعشّاقه إنما يَعشقونه لسحره الخاص ومفاتنه. حتى إذا ما زالت هذه المزايا، أو تغيّرت الشمائل والطباع، أو اختفى ذلك السحر، تفرّق الأصدقاء والعشاق من حوله. أما عن عاطفة الأبوة والأمومة فإنما يمكن للمرء أن يعتمد عليها بصفة خاصة وقت الأزمات: في الكوارث وحالات المرض، بل وحتى عند فقدان السّمعة. فآباؤنا وأمهاتنا يحبوننا لأننا أولادهم لا لأيّ سبب آخر. وإذ أن الأبوة والأمومة حقيقتان ثابتتان لا تتغيّران، فإنه يمكن للأبناء الاطمئنان إلى استمرار المودّة النابعة عنهما، والاعتماد بصددهما على آبائهم وأمهاتهم أكثر من اعتمادهم على أيّ شخص آخر. فإن لم يكن لهذا الاعتماد قيمة كبرى في زمن النجاح، فإنه يوفّر في زمن الفشل القدر الأكبر من العزاء والأمن والراحة، مما نفتقده في أيّ مصدر آخر.

□□□

لا شك في أن العلاقة الإنسانية المُثلَى هي تلك التي تُرضي جميع أطرافها. وهي حقيقة تنطبق بالأخص في مجال العلاقات بين الآباء والأبناء.

ذلك أن للسعادة التي توفّرها الأبوة للمرء شقّين: الأول، إحساسه بأن جزءاً من جسمه قد تجسّد خارجه، فيطول بذلك أمدُ حياته إلى ما بعد موته هو. والثاني، ذلك المزيج القويّ الغريب من السلطة ومشاعر المودّة والحنان.. فالمخلوق الجديد الذي ظهر في محيط العائلة مخلوق ضعيف لاحول له ولا قوة، هو لاشك هالك ما لم ينهض الغير بتوفير احتياجاته. والحافز لدى الأبوين إلى النهوض بتوفير هذه الاحتياجات لا يُشبع عاطفة

الحب للطفل فحسب، وإنما يشبع كذلك عاطفة حب السلطة والاحساس بالقوة تجاه مخلوق آخر. ومن هنا ينبع التّصارع بين العاطفتين مما قد لا يكون بعض الآباء والأمهات على وعى به، فيظلّون لسنوات طويلة على تمسّكهم بسلطتهم إزاء أبنائهم حتى يتمكن هؤلاء فى وقت من الأوقات من رفع راية العصيان والتمرّد.. وهو صراع غالبا ما يؤدى إلى ضياع السعادة الأبوية. فبعد كل ما بذله الآباء والأمهات من تضحيات، وكلّ ما أغدقوه من رعاية، قد يكتشفون، لهلعهم الشديد، أن الطفل قد غدا إنسانًا شديد الاختلاف عما كانوا يأملونه ويحلمون به.. وقد تتسبّب هذه النزعة إلى السيطرة والتملّك لدى الآباء فى ألف صورة من صور إساءة التصرّف تجاه أبنائهم. وهى ظاهرة من الشيوع - خاصة فى مجتمعاتنا الشرقية - بحيث لا نكاد نستثنى منها غير آباء وأمهات بالغى الرقة والقدرة على التفهّم والتعقّل، والاستعداء لاحترام شخصية أبنائهم على أىّ صورة تتخذها.

إن احترام شخصية الآخر أمر بالغ الأهمية والحيوية فى مختلف المجالات: فى الزواج وفى الصداقة، وفى العلاقات السياسية بين الدول، وبين الجماعات البشرية.. غير أنه مع أهمية هذا الاحترام وضرورة الرقة والدماثة فى معاملة الغير، فإنها أهمّ ما تكون فيما يتصل بأطفالنا، ربما بسبب عجزهم وشدة اعتمادهم علينا. والمؤكد أن الأبوين اللذين يحترمان شخصية أبنائهما ونموّهم المستقلّ عنهما، سيجدان فى الأبوّة والأمومة سعادة أعظم من تلك التى يجدها فيهما الآباء والأمهات المستبّدون المتمسكون بسلطانهم. فهنا مودّة قد طهرّتها الرقة من كل ميل إلى التسلّط، وأحالتها من معدن خسيس إلى ذهب خالص، وإلى مصدر سعادة أكيد فى الحياة العائلية.

وإنه لمما يساعد الأبوين على التخفيف من وطأة سيطرتهما على الأبناء كثرة اهتماماتهما الخارجة عن نطاق العائلة. فالناس مثلا لا يتوقّعون من الأب أن ينشغل كثيرا بأطفاله. والأطفال مع هذا ليسوا أقلّ حبا لآبائهم منهم لأمهاتهم. فإن نحن أدركنا حقيقة أن الآلاف المؤلفة من الأطفال تصيبهم الأمراض النفسية من جراء إفراط الأمهات فى تدليلهم والاهتمام بهم، فقد نرى من الأسلم، ومن الواجب، أن تقترب علاقة الأم بطفلها من طبيعة علاقة الأب به. حينئذ ستتحرّر الأم من عبودية لا لزوم لها ولامعنى.. صحيح أن الأم أقدر من غيرها على النهوض ببعض الخدمات لأطفالها. غير أنه مع نمو الطفل يتزايد عدد الأمور التى يمكن لغيرها أن يؤدّيها للطفل نيابة عنها، فيكون بوسعها بالتالى أن تستأنف نشاطها المهنى رغم أمومتها، وأن تتخلّى عن أعمال تشقّ عليها، وتفسد مزاجها، وتذهب بذكائها. ذلك أنه بالرغم من أهمية الأمومة فىحياتنا، فهى ليست بالعاطفة المُرْضية إن كانت تمثّل لدى الأم الحياة بأسرها. ولذا فإنه من صالح الطفل، ومن صالح الأم، ومن صالح الزوج، ومن صالح المجتمع معا، ألا تحوُل الأمومة بين المرأة وبين ممارستها لاهتماماتها الأخرى.

- ٤ -

المكانة الاجتماعية والسُّمْعة

لا أحسب أن ثمة سعادة حقيقية في المنصب الخطير، أو في المكانة الاجتماعية المرموقة، إلا في إتاحتهما فرصة أكبر أمام الإنسان الجاد أن يخرج بأفكاره إلى حيّز التنفيذ، فيفيد منها أكبر عدد ممكن من الناس. أما أن يسعى وراء هذا المنصب أو هذه المكانة لإرضاء غروره، أو نيل الألقاب والأوسمة، أو إثارة احترام العامة وحسد الأقران ورضا الأهل والعشيرة، فضرب من ضروب الحماقة وإلقاء الأيدى إلى التهلكة، خاصة إن لم يكن المرء أهلا للمنصب والمكانة.

قال أبو حفص الكِرْماني للخليفة المأمون: ظلمتَني يا أمير المؤمنين وظلمتَ غسّان بن عبّاد. قال: وكيف ذلك؟ قال: رفعتَ غسان فوق قدره ووضعتني دون قدرى، إلا أنك فى غسان أشدّ ظلما. قال: وكيف؟ قال: لأنك أقمته مقام هُزْء، وأقمتني مقام رحمة!

ذلك أن أساس احترام الناس لصاحب المنصب الكبير هو افتراضهم (وهو افتراض قد يكون خاطئاً) أنه إنما ولى هذا المنصب لتوفر المؤهلات المطلوبة له فيه، وتمتّعه بالقدرات اللازمة لإنجاز واجباته. وكلما كان المركز أعلى درجة، ومسئولياته أخطر، وواجباته أهم وأكثر، قوى افتراض الناس لتمتع صاحبه بالمواهب العظيمة، فيعظم فى أعينهم، ويزيد احترامهم له وهيبتهم منه.. غير أن فكرة الناس عن سعادة أصحاب المناصب بمناصبهم كثيرا ما تكون زائفة، إذ يتناسون إزراء الرعية بهم متى رأوا منهم تقصيراً أو عجزاً، وذلّ العزل الذى يجعلنا نعجب من تيه

الولاية، (فهم أشبه بقوم رقوا جبلا ثم وقعوا منه، فأقربهم إلى التلف أبعدهم فى المرقَى)، وخطر العُجْب والزهو بالنفس، وهم الذين لو أساءوا كل الإساءة لوجدوا من المنافقين من يزكّيهم ويشهد بعبقريتهم، واضطرارهم لتربهم من السلطان إلى طاعته فى المكروه عندهم، وموافقته فيما خالفهم، وتقدير الأمور على أهوائه دون هواهم. أو كما قال ابن المقفع : إن وجدتَ عن السلطان وصحبته غنىً فاستغن به، فإن من يخدم السلطان بحقّه يحُل بينه وبين لذة الدنيا وعمل الآخرة، ومن يخدمه بغير حقه يحتمل الفضيحة والدنيا والوزر فى الآخرة.

رأى الآخرين

غير أن معظم الناس إنما يفرحون بالمنصب الرفيع والمكانة الاجتماعية العالية لما يجلبانه لهم من احترام الآخرين.. ولست أنكر أن رأى الناس فينا يسهم إسهاماً كبيراً فى تكييف قدر ما نحققه من نجاح دنيوى، وأن احترامهم إيّانا ورضاءهم عنا يخففان الكثير من أعباء الحياة، ويجنّبانا بعض شرورها ومتاعبها. غير أنه لا ينبغى لنا أن نكون كالبخيل الذى ينسى الغاية من جمع المال ويركزّ جماع همّه على الوسيلة، فيضحّى فى سبيلها بما هو أهم منها وأخطر شأنا، كالصحة ومحبة الأهل والأصدقاء.

ذلك أنه من مظاهر ضعف الطبيعة البشرية مراعاة غالبية البشر لرأى الناس فيهم، رغم أن أقل قدر من التفكير يوضح أن هذا الرأى، مهما كان، ليس فى حدّ ذاته من مقوّمات السعادة، وأن السعادة التى ينبغى أن يلتمسها المرء فى المقام الأول داخل نفسه، لا يمكن أن تكون فى رءوس

الآخرين.. غير أنك متى ربتّ على رأس كلبك هزّ ذيله طرباً، ومتى مدحك الآخرون تهللت أساريرك وابتسم ثغرك. وهو مديح نرحب به ولو كان كذباً محضاً، خاصة إن تعلق بأمر نعتز به، أو صفة نفخر بتوفرها فينا.. بل وثمة من يعزّى نفسه إن أصابته كارثة من جراء موقف منه أو تصرف له، بأن الناس أعجبوا بهذا الموقف أو التصرف وصفقوا له.

غالبيتنا إذن تميل بطبيعتها إلى الإفراط فى تقييم أهمية رأى الغير فيها، وكثيرا ما تضحى فى سبيله بما هو أهم منه بكثير.. وربما كان هذا هو السبب فى أن حياة العزلة التى يختارها لأنفسهم بعض المفكرين - كالمرحوم جمال حمدان، أو الفيلسوف النمساوى المعاصر لودفيج فيتجنشتاين - كثيراً ما تكون السبيل إلى راحة البال، حيث أن صاحبها ينجو بنفسه من أن يكون دائماً محط أنظار الناس وموضع اهتمامهم، فيسعى إلى تكييف حياته ومسلكه فى سبيل نيل رضاهم عنه، وتقديرهم له، ويصبح عبداً لرأيهم فيه، ويصرفه هذا السعى بالتالى عن حياته الروحية الداخلية إلى الزهو بنفسه.

ويختلف الزهو بالنفس اختلافاً كبيراً عن الثقة والاعتزاز بالنفس. فالثقة بالنفس هى إيمان الفرد بقيمته وبتفرّده فى مجال معين. أما الزهو بالنفس فناجم عن نجاحه فى إثارة إعجاب الآخرين بصفات يهمّه أن تكون فيه.. الثقة بالنفس شأن داخلى خالص لدى امرئ يعرف قدر ذاته، والزهو بالنفس هو رغبة الإنسان فى أن يصل إلى احترام نفسه بطريق غير مباشر هو خارج ذاته.

فإن شاء الفرد منا أن يضع حدًّا لهذا الضعف وهذه المبالغة فى مراعاة رأى الآخرين فيه، فسيسهّل عليه ذلك أن يتذكر ضيق أفق عامة الناس،

وسطحية أحكامهم وزيفها، وسرعة تقلّب أهوائهم، وخطئهم المتكرر فى تقييم الغير، وتفاهة تأثير هذا التقييم فينا فى معظم الحالات، وميلهم الطبيعى إلى انتقاد الغير والطعن فيه، متى ما لم يعودوا يخشون سطوته، أو متى اطمأنوا إلى أن أقوالهم فيه لن تبلغه. كذلك فإن عليه أن يدرك هذه الحقيقة البسيطة: وهى أن وجوده الحقيقى، والمقومات الأساسية لهذا الوجود ولسعادته، هى داخله هو نفسه لا فى رأى الناس فيه.

السمعة الطيبة

ومع ذلك فإنه ما من شك فى أن للسمعة الطيبة أهميتها، خاصة بالنسبة للمشتغلين بمهن معينة كالمحاماة والطب والتجارة. ذلك أن الفشل الدنيوى فى حال فقدانها هو شبه مؤكد بسبب انصراف الناس عن التعامل معهم.. وتقوم السمعة هنا على أساس منطقى سليم، هو أن الشخصية الأخلاقية للمرء ثابتة غير قابلة للتغيير مدى الحياة.. فالتصرف الدنئ الواحد - كالسرقة أو خيانة الأمانة أو الكذب - يعنى إمكان أن نتوقع من صاحبه تصرفات مماثلة كثيرة فى المستقبل.. وهذا هو السر فى أن المرء متى فقد سمعته، صعب أو استحال عليه أن يستردّها، ما لم يكن فقدان السمعة قد حدث نتيجة خطأ فى التقدير والحكم، كأن تُفَسَّر تصرفاته فى ضوء زائف، أو كان نتيجة تشهير مغرض كاذب.

وتختلف السمعة عن الشهرة فى أن الأولى ذات طابع سلبى، والثانية ذات طابع إيجابى.. فالسمعة ليست رأى الآخرين فى صفات معينة قد تتوفر فى الشخص دون الكثيرين غيره، بل هى رأيهم فى الصفات التى يرون وجوب توفرها فيه، والتزامه الصارم بها. فإنما تعنى السمعة الطيبة إذن أن صاحبها إنسان عادى، بينما تعنى الشهرة أن صاحبها غير

عادى. كذلك فإنه على الإنسان الراغب فى الشهرة أن يجاهد من أجل تحقيقها، أما السمعة الطيبة فما عليه إلا أن يحافظ عليها وألا يفقدها. وفقدان السمعة إنما يعنى العار، فى حين لا يعنى الافتقار إلى الشهرة سوى أن الشخص عادىّ مجهول.

وما من أحد فى واقع الأمر بوسعه أن يستهتر استهتاراً تامًّا بسمعته بين الناس، وذلك بالرغم من أن تأثير رأى الآخرين فينا هو دائماً تأثير غير مباشر، إذ أنه هو الذى يكيّف تصرفاتهم وسلوكهم نحونا. فنحن فى حياتنا اليومية كثيراً ما نحتاج إلى مساعدة الغير. وهذا الغير بدوره لابد أن تتوفر لديه الثقة فينا قبل أن يقدم على التعامل معنا. وبالتالى فإن رأى الآخرين فينا هو – بصورة غير مباشرة – كبير الأهمية بالنسبة لنا. وهو ما حدا بشيشيرون إلى القول بأن «السمعة الطيبة ليست أهلا لأن نرفع إصبعاً من أجل نيلها لولا أنها عظيمة الفائدة»!

الرأى العام

كذلك فإنه لمن الصعب أن يكون الإنسان سعيدا ما لم تلق آراؤه وأسلوب حياته رضا الأفراد الذين يعيش بينهم، أو تربطه بهم علاقات اجتماعية، وإلا عاش بميوله ومعتقداته كالطريد المنبوذ، فى حين أنه لو كان فى وسط مختلف لتقبّله أفراده بالترحيب والتشجيع.. ويمكن لمثل هذه الحالة أن تتسبب فى شقاء عظيم، خاصة للشباب الذى قد يلتقط أفكاراً معينة من الكتب أو الأصدقاء، فإذا هى مرفوضة مستنكرة لدى الوسط الذى يعيش فيه، وإذا بهذا الوضع وقد تسبب لصاحبه ليس فى الألم فحسب، وإنما أيضا فى تبدد جانب كبير من طاقته الروحية إذ يحاول الاحتفاظ باستقلاله العقلى فى وسط معادٍ له.

صحيح أن البعض قد يتمتع بدرجة من الإصرار وقوة الشخصية والاعتداد بالنفس تيسر عليه المقاومة. غير أن المؤكد أن غالبية البشر تحتاج من أجل سعادتها إلى وسط متعاطف.. وهو تعاطف يسهل على هذه الغالبية أن تنعم بدفئه متى ما تبنّت منذ نعومة أظافرها الأفكار السائدة في بيئتها، وكيّفت نفسها وفق العادات والتقاليد المحيطة بها. أما الأقلية التي تشمل كل أو جُلّ أصحاب المواهب الفنية والعقلية فغالباً ما تأبى الانصياع والإذعان. وقد يولد الشخص وينشأ في بلدة صغيرة، أو في مجتمع تقليدى، فيجد نفسه منذ صباه محاطاً بعداوة ضارية تجاه كل ما هو ضرورى للتميز العقلى.. إن أقبل على مطالعة الكتب الجادة احتقره أقرانه من الصبية، وحذّره المدرسون من خطورة مثل هذه الكتب. وإن اهتم بفن من الفنون ظنه الصبية الآخرون ضعيفاً مفتقراً إلى الرجولة. وإن اختار لنفسه بعد الدراسة مهنة لا تحترمها بيئته قال معارفه إنه إنما يسعى إلى المخالفة كي يعرف، أو إنه فتى شاذ، وكرروا فى مسامعه أن ما ارتضاه أبوه وأجداده لأنفسهم كفيل بأن يرضيه ويكفيه. وإن انتقد معتقدات أبويه وجد نفسه وقد وقع فى ورطة كبيرة.. لذلك كانت سنوات المراهقة فى حياة معظم عظماء الرجال والنساء سنوات شقاء عظيم، فى حين يعتبرها أقرانهم العاديون زمن المرح واللهو.. فهم ينشدون فى تلك السنوات شيئا جادا يفتقدونه فى آبائهم ومعاصريهم، وفى الإطار الاجتماعى الذى صادف أن وجدوا فيه. وتكون نتيجة معاداة محيطهم لهم اضطرار الكثيرين منهم إلى إخفاء آرائهم وميولهم معظم الوقت عن معظم الناس، وأن يتّميز سلوكهم بالتهيّب والوجل.

والمصيبة هى أن هذا التهيّب والوجل يؤدّيان فى أغلب الحالات إلى تفاقم الوضع لا إلى علاجه. فالرأى العام يميل دائماً إلى أن يكون أشد

استبداداً وتعنّتاً وأثقل وطأة بالنسبة لمن يرى في وضوح أنهم يتهيّبونه ويخشونه ويعملون حساباً له، منه بالنسبة لغير المكترثين به.. فكما أن الكلب ينبح نباحاً أعلى ويكون على استعداد أكبر لأن يعضّك متى أحس بأنك تخافه، ولا ينبحك أو يهاجمك إن أبديت احتقاراً له أو عدم مبالاة به، فكذلك البشر، يرون فيك صيداً ثميناً متى أدركوا أنك تهابهم، ولو أنك أبديت لهم فى وضوح عدم اكتراثك برأيهم فيك، لشرعوا على الفور فى الشك فى قدراتهم وصحة آرائهم، ومالوا إلى أن يتركوك وشأنك.. غير أن ثمة شرطا هامًّا: وهو أن يكون عدم اكتراثك حقيقيًّا وطبيعيًّا ونابعاً من شخصيتك، لا أن يتّخذ شكل العناد والتحدى الصريح. فإن تحقق هذا الشرط فالغالب أن تلقى آراؤك وميولك القبول فى نهاية الأمر، حتى فى أشد المجتمعات محافظة وتزمّتاً؛ إذ سيعتبرك الناس عندئذ شخصاً شاذاً غريب الأطوار ولكن لا بأس بك، ويسمحون لك بما لن يغتفروه لغيرك.. وتفسير ذلك هو أن السرّ فى معارضة الناس للخروج عن تقاليدهم ومعتقداتهم هو أنهم يعتبرون هذا الخروج انتقاداً لهم هم، واحتقاراً لشأنهم. ولذا فهم أميل إلى أن يغتفروا لك «زلّتك»، إن كان خروجك بصورة غير عدوانية، وبطريقة ودية وطبيعية تؤكد بها، حتى لأغباهم، أنك لا تقصد إهانة أحد، ولا تنتقد سلوكهم أو تنكر حقهم فى اختيار ما شاءوا من المعتقدات أو أساليب العيش.

المقاومة والإذعان

إن الخوف من الرأى العام، والإذعان له، هما كأى نوع آخر من الخوف أو الإذعان، يضّران بنمو الشخصية، ويحولان دون ازدهارها، ودون تحقيق الفرد لذاته وبلوغه هدفه، ويضعان العراقيل فى طريق حرية الروح التى هى من شروط السعادة الحقة. ذلك أنه من المهم للغاية من

أجل تحقق السعادة أن يكون أسلوب حياتنا نابعاً عن تكويننا النفسى، وعن مقوّماتنا ونزعاتنا، لا عن أذواق ورغبات من صادف أن كانوا جيراننا أو أقاربنا.. نحن بطبيعة الحال لا ندعو الشباب إلى الاستخفاف بالرأى العام عمداً. غير أن عدم الاكتراث الحقيقى به هو مصدر قوة ومصدر سعادة فى آن واحد. والمهم هنا - وكما سبق القول - أن يكون المرء طبيعيًّا ومخلصاً فى اتباع ميوله وتنميتها متى لم يكن من شأن هذه الميول الإضرار بالآخرين أو بالمجتمع. وإنه لمن المؤكد أن كثرة الأفراد ممن يفضلون صقل طبائعهم وإنماءَها على الانصياع والإذعان لرأى الآخرين، من شأنها أن تجعل المجتمع أكثر بهجة وأجمل منظراً من المجتمع الذى يتصرف كافة أفراده على نحو واحد. فهنا شخصيات نامية متنوعة المشارب مختلفة الاتجاهات والمواهب، تجعل من تعرّفنا بأناس جدد متعة عظيمة لا نجدها فى مقابلة أناس هم نسخ طبق الأصل من أولئك الذين صادفناهم من قبل.

على الشباب إذن ممن يجد نفسه غريباً أو طريداً أو منبوذاً فى بيئته أن يحاول الانخراط فى مهنة تهيئ له فرصة الالتقاء بمن يشاركونه ميوله وأفكاره، حتى إن كان الدخل منها بسيطاً.. وعليه أن يتذكر أن الصراع مع البيئة المحيطة وإن كان مؤلماً وكفيلاً بأن يثير له المشكلات، فهو ليس بالمأساة التى ينبغى عليه أن يتجنّبها بأى ثمن.. فالبيئة متى كانت غبية قاسية، كان فى الخروج عليها دليلاً على الجدارة والقيمة الحقة. قد يكون من الحكمة أو من الواجب أن ننصاع للرأى العام تجنباً للسجن أو للموت جوعاً. غير أنه فيما عدا ذلك فإن الإذعان طواعية لاستبداد لا مبرر له ولا سند من المنطق، كفيل بأن يؤثر فى سعادتنا من جميع الوجوه.

إننا نلمس في المجتمعات كافة - غربيّها وشرقيها - قدراً أكبر مما ينبغى من الانصياع للرأى العام وآراء الآخرين، سواء فى الأمور الكبيرة أو الصغيرة. والشباب بالذات هم أكثر الناس معاناة فى هذا الصدد، خاصة قبل أن يتمكن من أن يثبت مواهبه وقدراته فهو كثيراً ما يكون تحت رحمة أناس يرون أنفسهم أقدر منه على الحكم على الأمور بفضل تجاربهم الأوسع فى الحياة، فيأبون فى غضب وصلف أن يخالفهم الشباب فى الرأى. وقد يكافح الشباب ويناضل ويقاوم طويلاً مثل هذا التعنت والصلف. غير أنه حتى إن أنتصر فى النهاية، تبين أن القدر الكبير من طاقته قد تبدّد خلال تلك المقاومة، وأن شخصيته باتت من جرّائها تتميّز بنوع من المرارة.

قد يذهب البعض من أجل التهوين من شأن الأثر المدمّر لاستبداد البيئة والوسط المحيط بالنابهين إلى أن العبقرية تفرض نفسها دائماً فى النهاية. غير أن هذا القول فى زعمنا غير سليم.. صحيح أن كل العباقرة الذين نقرأ عنهم فى التاريخ نجحوا فى فرض أنفسهم وتغلبوا على ما أقيم فى طريقهم من عقبات. غير أننا نسأل: ما أدرانا أن حشدا آخر من العباقرة لم ينهاروا إزاء عداوة الوسط المحيط بهم، ولم يجدوا سبيلاً غير الإذعان والرضوخ للضغوط التى جابهوها فى شبابهم، فلم يكن بالإمكان أن نسمع عنهم؟! ثم إن الأمر لا يتصل بالعبقرية فحسب، وإنما يتعلق أيضا بالمواهب التى تحتاج مجتمعاتنا إليها، والتى قد لا تجد لنفسها منفذاً فى بيئة معادية متعنتة، أو تجد لها منفذاً ولكن بعد صراع يصيب صاحبها بالمرارة والجراح، ويبدد شطرا من طاقته الإبداعية.

لهذا كله وجب علينا أن نخفّف من ضغوطنا على الشباب، وأن نسمح لهم بقدر أوسع كثيراً من حرية الاختيار لأنفسهم حتى لو أخطئوا أو ظنناهم مخطئين.. أما عن الشباب أنفسهم فإنهم يخطئون خطأ فاحشاً إن هم أذعنوا لضغط البيئة فيما يعتبرونه أموراً حيوية بالنسبة لهم، وإن هم رأوا تهديد الشيوخ وتقريعهم سبباً كافياً للتخلى عن العزم.. قد يذكرون للشاب أن النشاط الذى يريد أن يمارسه غير محترم، أو غير لائق بمركز أسرته الاجتماعى، أو غير مربح، وقد يهددونه بالتبرؤ منه، أو يحذرونه من أنه سيندم بعد بضعة أشهر أو بضع سنين، أو يذكّرونه بما حدث لفلان وفلان.. غير أن على الشاب أن يذكر دائماً أن الأمر إنما يتعلق بأمر هو أهم بكثير من رضا الوسط المحيط به والرأى العام وأفكار الآخرين عنه. هو أمر يتعلق بازدهاره ونموه الحر الطبيعى وسعادته. وبوسعنا أن نؤكد له أن الغالب إن هو أبدى العزم والإصرار أن يرضخ هذا الوسط المعادى ويقبل الأمر الواقع بأسرع مما يتخيل أفراد هذا الوسط، أو يتخيل الشاب نفسه.

– ٥ –

الشُّهرة : ما لها وما عليها

لاشكّ فى أن قيمة المرء الحقيقية ليست فى إنتاجه الفعلى بقدر ما هى فى قوة القريحة ورفاهة الحس اللتين مكّنتاه من إنتاج ما أنتج.. هى فى نفسه وملكاته لا فى المظهر الخارجى لهذه الملكات.. غير أنه لاشك أيضا فى أن إعجاب الناس به وبإنتاجه هو من الدواعى الإيجابية لسعادته، وفى أن شهرته ونجاحه من شأنهما أن يطمئناه على أنه يمتلك موهبة حقيقية يجدر به استغلالها وإنماؤها وتعهّدها بالرعاية، فى حين قد يزعزع الفشل من ثقته فى وجود تلك الموهبة، فيتوقّف عن ممارستها.. فالثقة بالنفس هى عماد المهارة وشرط المقدرة. والإنسان عادة يفتقر إلى القدرة على أن يحكم بنفسه على مدى جودة ما ينتجه ما لم يلمس ردّ الفعل الإيجابى أو السلبى لدى الجمهور والنقاد.. والعين، كما قيل، لا ترى نفسها إلاّ بمرآة.. وإذ أن العالم زاخر بالأناس العاديين غير المتميّزين، فإن الشهرة العظيمة لا يمكن أن تعنى إلا أن صاحبها فرد متميّز خارق للعادة، وأنه من بين الآلاف التى يصادفها فى الطريق، أو الملايين التي يسمع بوجودها، ذو قيمة فذّة ترفعه فوقها، وتفرّقه عنها. ولابدّ أن إدراكه لهذه الحقيقة سيجلب إلى نفسه الرضا والسعادة، خاصة إن كان العمر قد تقدّم به فأفقده القدرة على الاستمتاع بأمور كثيرة مما يستمتع به الشباب.. حينئذ تضحى الشهرة إحدى متعه المحدودة، وتعويضاً لا بأس به عما بدأ يعترى شيخوخته من آفات، ومصدر رزق حين تضعف قواه الجثمانية عن تحصيل الرزق.

هذا إلى أن الناس عادة إنما تحكم على الأشخاص وأفعالهم على ضوء النتيجة وقدر النجاح. وعندها أن الفاشل لابدّ سئ، والناجح لابدّ جيّد. فالحظ السعيد كثيراً ما يكون لازماً للإعلاء من شأن المناقب والفضائل.. وها هو كل من يوليوس قيصر وكاتيلين قد اعتزم نفس الأمر، وبيّت نفس الخطة والمؤامرة ضد الدولة، وكان لدى كل منهما نفس القدر من الموهبة والشجاعة. غير أن نجاح قيصر فى إنجازه خططه قد صيّره بطلاً تسير بذكره الركبان، فى حين أدّى فشل مؤامرة كاتيلين إلى الحديث عنه فى كتب التاريخ باعتباره خائنا غبيّا.. كذلك فقد ثار البحارة على كريستوفر كولومبوس إبّان رحلته البحرية، ورفعوا راية العصيان، وطالبوه بالعودة إلى أسبانيا، فاستمهلهم متوسلاً ثلاثة أيام يقفل بعدها عائداً إن لم تبد خلالها أرض فى الأفق. ثم إذا بهم فى مساء اليوم الثالث وقد لاحت لاعينهم أرض العالم الجديد. ولو أن البحارة أبوا إمهاله غير يومين، وعادت السفن إلى أسبانيا وقد خابت الآمال المعقودة عليها، لذكر الناس كولومبوس باعتباره حالماً واهماً، قد خدع الملك فرديناند وغرّر به، وبدّد الأموال الطائلة وخاطر بأرواح بحّارته، فى حين يذكرونه الآن بفضل نجاحه على أنه المكتشف الأعظم، والبطل الفرد.

فالدنيا إذن إذا أقبلت على أحد أعارته محاسن غيره، وإن أدبرت سلبته محاسن نفسه.. فإن كانت جودة إنتاج المرء هى فى بعض الأحيان سبب شهرته، فإن شهرته هى فى كل الأحيان سبب الاعتراف بجودة إنتاجه. ولو كان الفشل نصيبه لتصيّد الناس لنفس هذا الإنتاج العيوب، وبرّروا بها فشله وخمول ذكره.

□□□

وقد تضاربت الآراء بصدد تأثير النجاح والشهرة فى مستوى إنتاج المرء: فمن قائل (كهيمنجواى) إن النجاح ألدّ أعداء الأديب: «فالكتاب الجيدّ يأتى له بالمال. وما يأتى المال حتى يرفع الكاتب به من مستوى معيشته. وما يرفع مستوى معيشته حتى يبدأ هو وزوجته وأولاده فى اعتياده، فيحرص كل الحرص على ألا ينخفض . ويؤدى حرصه ذلك إلى السرعة والإفراط فى الكتابة. والإفراط والسرعة فى الكتابة يؤدّيان إلى الإسفاف وهبوط المستوى. وإذ يهبط مستوى كتاباته يخمد حماس النقاد والقراء. وبخمود هذا الحماس تهتز ثقة الأديب بنفسه».

ومن قائل (كسمر ست موم) إن النجاح لا يُفسد الأديب وإنما يُصلحه. «وهو لا يؤدّى به إلى الغرور وتعاظم الإحساس بذاته ورضائه عنها، بل هو يعزّز من السمات الطيبة فى خلقه، ويُضفى عليه تواضعاً وتسامحاً واعتدال مزاج، فى حين يميل به الفشل إلى أن يضحى قاسياً شديد الإحساس بالمرارة، عظيم الحسد لغيره من الكتاب الناجحين، دائم السخط على ما حوله ومن حوله».

وتضارب الآراء هذا راجع فى حقيقته إلى اختلاف طبائع الناس اختلافاً يجعل من الأمر الواحد ضارًا بهذا ومفيدا لذاك. فمن المؤكد أن النجاح المبكر والشهرة لم يضرّا بأدب تولستوى، أو دوستويفسكى، أو جوته، أو تشارلس ديكنز، أو توماس مان، أو آرثر ميلر. كما أنه من المؤكد أنه أفسد فرانسواز ساجان، وشولو خوف، وسكوت فيتزجيرالد، وتينيسى ويليامز ، وجون أوزبورن .. كذلك فقد يؤدى فشل فنان معين فى إحراز النجاح والشهرة إلى إحساسه بالقهر، وفقدانه الثقة بنفسه، ثم إلى إحجامه كلية عن مواصلة الإنتاج؛ وقد لا يؤثر هذا الفشل فى إيمان

فنان آخر بقدراته وقيمة ما ينتجه، فينتج لنفسه أو لأجيال تالية هو على ثقة من أنها ستكون أقدر على تقييم فنّه تقييما عادلا.

فالقاعدة فى هذا الشأن إذن أنه لا قاعدة، وأن الأمر يتوقف على شخصية المرء وطبيعة تكوينه. فإن كان قد قيل إن الفراق يقتل المودّة السطحية ويزيد المودّة الصادقة توهّجا، فكذلك النجاح والشهرة قد يقتلان المواهب الصغيرة والزائفة، ويصقلان الموهبة الحقيقية الضخمة.

□□□

فأما عن صاحب الموهبة الضعيفة أو الزائفة، فهو قد يخرج على الناس بكتاب يلقى بينهم رواجاً عظيماً، ولا يكون لهذا الرواج والنجاح أدنى صلة بعبقرية أو نبوغ. فقد يكون حاوياً لأسرار سياسية لا يعلمها غيره، أو وصف رحلة إلى أقطار بعيدة لم تطأها أقدام غالبية قرائه. وقد يكون كتابه جنسيًّا فاحشاً، أو فكاهيًّا رائقاً، أو بوليسيًّا شائقاً، أو عاطفيًّا رومانسيا يستهوى قلوب المراهقين والمراهقات، أو شديد التعاطف مع تيار سياسى أو دينى له شعبية كبيرة مؤقتة.. حينئذ يلمع اسم الكاتب، وتزيد دور النشر من نسبة مكافآته، وتستجلبه الإذاعة للحديث فيها، والتيليفزيون لكتابة التمثيليات المسلسلة له، وتستكتبه الجرائد والمجلات، ويُدعى للاشتراك فى ندوات، وإلى إلقاء المحاضرات، وتُجرى معه المقابلات الصحفية، وتُسند إليه كتابة عمود يومى أو مقال أسبوعى، ويؤخذ رأيه عند وقوع حدث، ويُمطر بالأسئلة عن نمط حياته وأسلوب معيشته، وعن ألوان الطعام التى يهواها، والأغانى التى يفضّلها، وعلة غرامه بالقطط، وسبب كراهته لارتداء رباط العنق.

وهو إذ يُقبل على كل هذا فى نشاط وهمة، إنما يحفر قبره بنفسه.. فالساعات التى كان يقضيها فى الاطلاع والقراءة تتناقص فتتضاءل فتندثر. والمال الذى بات يُغدَق عليه قد نقله من الريف أو مدن الأقاليم إلى العاصمة، أو من وسط شعبى يفيض حياة وكان مصدر إلهام كتاباته الأولى إلى صالونات الأغنياء والأدباء من أمثاله. وقد تعرّف بسبب نجاحه بعدد كبير من النقّاد والكُتّاب، وأنشأ معهم علاقات شخصية، فباتوا مضطرين اضطرارا إلى امتداح كل كتاب جديد له، أو الإحجام على الأقل عن بيان نقائصه وعيوبه، فيزيده مديحهم الذى يحسبه مخلصاً غروراً واطمئناناً إلى استمرار موهبته.

وَعَــدَّ النــاسُ ضَرْطَتَــهُ غِنــاءً
وقــالوا إن فَسَـا: قـد فــاح طِيـبُ!

وإذ أن المجلات والصحف ودور النشر وسائر وسائل الإعلام يهمّها شهرة الكاتب قبل جودة ما يكتبه، فإنها تظل على إلحافها فى طلب المقالات والتمثيليات والكتب إلحافاً يوهمه بأنه لا سبب وراءه غير عبقريته. وعموده اليومى فى الصحيفة يُملأ، ومقاله الأسبوعى فى المجلة يُكتب، وإن لم يكن قد بقى فى عقله أفكار جديدة. والبئر لابدّ من استخراج الماء منها ولو كانت فارغة. وأصحاب الصالونات من الأغنياء يتهافتون على دعوته لإضفاء البريق على سهراتهم، فيتبدّد وقته وتتشتّت طاقته الذهنية والروحية بالتردّد عليها لسماع الثناء على آخر ما كتب، وأحدث ما نشر.. وثمة نساء وفتيات قاصرات العقل يراسلنه أو يستشرنه أو يتزاحمن عليه، ويرين فخراً أن ينشئن معه علاقة جنسية.. كل هذا

وغيره أمور من شأنها أن تقتل الموهبة الصادقة، بَلْهَ الموهبة الزائفة، فإذا كل كتاب هو أضعف مما سبقه، وكل مقال أتفه من سلفه، حتى إذا ما صار كقشرة الليمونة قد اعتُصر منها كل ما في جوفها، تعجّب وتأفّف، وتألمّ وتذمّر، إذ يرى الجمهور وقد تحوّل عنه فجأة إلى كاتب صاعد ونجم جديد، وإذا مكانه في صندوق القمامة وهو الذى كان قد أوشك أن يصبح على ثقة من أنه فى زمرة الخالدين.

ولاشك فى أن كل هذا كان وراء قولة أنتونى ترولوب الشهيرة إن النجاح هو بمثابة السمّ الذى ليس من المصلحة تناوله إلا فى أواخر العمر؛ وحتى فى أواخر العمر فإنه لا ينبغى تناوله إلا فى جرعات صغيرة.. فالكهل والشيخ أبصر من الشباب بالأمور على حقيقتها، وأصعب انبهاراً بالمتقلّب الفانى، وأقل تعرّضاً للإصابة بالزهو أو بالإفراط فى تقييم متاع الغرور. فإن أخذنا فى الاعتبار ذلك الميل لدى النقاد إلى أن يلعبوا دور يوحنا المعمدان الذى بشّر بقدوم المسيح، والتهليل الأحمق لكاتب جديد شاب باعتباره «أمل المستقبل»، و «أعجوبة الزمان» و «خليفة طه حسين وأحمد أمين»، أدركنا مدى خطورة خمر الثناء على عقول الشباب الغرّ..

□□□

وأما عن أصحاب المواهب الحقيقية، فما من أدنى شك فى أن الشهرة ستكون من نصيبهم، وأنها ستلازمهم بالضرورة ملازمة الظل للإنسان. غير أنها كالظلّ تسبق الإنسان أحياناً وأحياناً تتبعه. وقديماً قيل إن

معبدها يحوى أمواتا لم يدخلوه حتى ماتوا، وأحيـاء سيُطردون منـه فـور وفاتهم.. فالفنان المتميز الفحل لا مفرّ من أن يستثير عند أصحاب المواهب الزائفة مشاعر الحسد والغيرة والخوف والكراهية. فهو كالشمس إذا طلعت «لم يبدُ منـهن كوكبُ» على حـدّ تعبير النابغـة الذّبيـانى. وإذ تصفـرّ وجوههم وتنقبض صدورهم إزاء كل إنتاج متميز يصدر منه، يرون السـلامة فى التحالف والتـآزر مـن أجـل هدمـه، والتضـافر علـى تحقيره وإخمـاد صيته. وقد يلجئون إلى سلاح الصّمـت للحيلولـة دون نيلـه الشـهرة التـى ستودى بشهرتهم، فلا يذكرون إنتاجه بكلمـة، ويحرصـون علـى ألا يـرد ذكر اسمه على ألسنتهم، فى الوقت الذى يشيدون فيه بكل إنتـاج يصـدر عن أمثالهم من أصحاب القرائح العقيمة الجدبـة، ويمسـح بعضـهم جـوخ بعض كما تتهارش الحمير، مطمئنين إلى أنـه لا خطـر علـى شـهرتهم مـن شهرة التافهين الأراذل.

على أن تأخرّ شهرة المجيد الموهوب هو فى الغالب خير له وإن كرهه وتألمّ له. فهو بتأخّرها قـد تجنّـب لسـنوات طويلـة مـا تحدّثنـا عنـه مـن أخطار الثروة والغرور، والصالونات والنساء، وهجره لمصدر إلهامه وبيئتـه الطبيعية.. لازال وقته ملك يده، وقـراءاته وسـاعات تفكـيره وتأملاتـه لم ينتقص منها شيء.. كذلـك فإنـه مـا مـن شـىء ذى قيمـة حقيقيـة إلا استغرق نموّه زمناً طويلاً. أو كمـا قـال ابـن حـزم: «أسـرع الأشـياء نمـوًّا أسرعها فناء، وأبطؤها حدوثًا أبطؤها نفاداً، ومـا دخـل عسـيرا لم يخـرج يسيرا».. إن تأخرت شهرة الفنان فى حياته فـالأرجح أنـها ستدوم مـدة أطول بعد وفاته :

يموت رديء الشعر من قبل أهله
وجيّده يبقى وإن مات قائله!

فهو إن تأنّى فإنما ليُتْقِن. «قال بعض الشعراء لبعض: أنا أقول كل ساعة قصيدة وأنت تقرضها في كل شهر. قال: لأني لا أقبل من شيطاني مثل الذي تقبله من شيطانك!».. وإن كتب فإنما يكتب للأجيال كافة والأمم كافة، لا لجيله وحده وأمته وحدها. أما من جاءت شهرته الزائفة نتيجة تناوله لموضوعات الساعة، أو لإرضاء ميول عارضة واتجاهات سياسية أو دينية مؤقتة، فإنما شهرته أشبه شيء بالأعشاب والنباتات الصحراوية التي تنمو سريعاً وتذوي سريعاً ويسهل على الطفل الرضيع اقتلاعها، أو بالورقة الخفيفة ليس بوسع أقوى ذراع لناقد أو ناشر أن يطيّرها مسافة بعيدة.

أضف إلى ذلك أن تأخّر الشهرة والنجاح سبب في ألا يتعجّل المرء الإنجاز، إذ ليس هناك ما يستحثّه ويدفعه إلى الإنتاج ما لم تجُل بخاطره فكرة جديدة ذات قيمة. وهو في العادة إنما ينتج لإرضاء حافز داخلي قوي يحفزه إلى التعبير عن ذاته، لا لإرضاء الجمهور:

عليّ نحتُ القوافي من مقاطعها وما عليّ لهم أن تفهم البَقَرُ!

وهو يدرك أن النائحة الثكلى ليست كالنائحة المستأجرة، وأن الكلمة إذا خرجت من القلب وقعت في القلب، وإذا خرجت من اللسان لم تجاوز الآذان.. لذلك فهو حريص كل الحرص على كمال الأداء، وإتقان الصنعة. ليس ثمة أمامه عمود يومي عليه أن يملأ سطوره بأي كلام، ولا وراءه رئيس تحرير مجلة يستحثّه الإنجاز كي يلحق

بالعدد الأسبوعى، أو مدير إذاعة يستعجل حلقات التمثيلية لتسجيلها قبل ظهور هلال رمضان. وقد قضى جوته فى كتابة «فاوست» اثنين وستين عاماً. ولو أنه كان ينشرها فى حلقات فى مجلة، أو استعجله مدير الإذاعة لتسجيل المسلسل، لكان من المؤكد أن يُحرم الأدب العالمى من إحدى روائعه.

□□□

ومع ذلك.. فإن كان النجاح قد وفّر للفنان سعة فى العيش، ونقله بذلك من حيّه الشعبى أو الريف وسكانها إلى حىّ أنيق فى العاصمة، وتحوّل عن استخدام الحافلات العامة المزدحمة إلى ركوب سيارة خاصة به، وتضاءلت صلاته بطبقات الشعب المختلفة وكادت تقتصر على الأثرياء والفنانين، فلاشك أيضا فى أن الضيق فى جانب يصاحبه انفراج فى جانب، وانغلاق باب هنا يواكبه انفتاح باب هناك.. فهو الآن قد أضحى بفضل الشهرة والنجاح يخالط أناساً من طبقة الأدباء والفنانين والمثقفين ذوى الأفكار والأحاديث والمساجلات التى من شأنها أن تغذّى فكره وفنه.. وهو يقابل فى أمسية واحدة يقضيها فى أحد صالونات الأغنياء مجموعة من المشاهير من نجوم السينما والمسرح والشعر والموسيقى والرسم والنحت والسياسة والدبلوماسية والاقتصاد، فتنمو بلقياهم معارفه، ويتّسع بمحاورتهم نطاق اهتماماته، وينفتح أمامه بالاستماع إليهم باب من الخبرات الجديدة التى لم يكن له عهد بها. وها هم المعجبون به يكتبون إليه أو يحادثونه فى لقاءاتهم به عن أخص خصائص حياتهم، وأسرار قلوبهم، مما لا يُفضون به إلى أقرب المقرّبين إليهم من أصدقائهم وذويهم.

ثم ها هو يُدعى إلى مؤتمر للكتّاب فى هذه الدولة الأجنبية أو تلك، أو إلى إلقاء محاضرات فى جامعة أوروبية أو أمريكية، وقد يسعى حاكم آسيوى أو إفريقى إلى الاجتماع به، فإذا به وهو ابن الحاج عبد المقصود عمدة إحدى قرى الصعيد، وقد نزل ضيفاً على كاسترو، وتداول ساعة مع الملك حسين، وجال بين الآثار الإسلامية فى سمرقند وطشقند، ودخل فى نقاش مع أساتذة جامعة أوكسفورد وطلبتها، وتناول العشاء على مائدة هافيل أو مكسيم رودنسون.

فإن كان كل هذا قد استغرق الكثير من وقته، وأثّر فى قدر قراءاته، فهو بالتأكيد قد أثرى حصيلة تجاربه، ووسّع من أفقه ومفاهيمه عن الحياة والعالم حوله، وقضى على خطر أن يتحوّل إلى دودة كتب، أو راهب فى صومعة.

□□□

وصحيح أن الشهرة والنجاح يواكبهما فى العادة إكثار من الإنتاج وسرعة فيه. غير أن السرعة ليست بالضرورة مدعاة إلى الحطّ من قيمة الإنتاج مادام العقل خصباً زاخراً بالأفكار. وإنما تمثّل السرعة خطورة حين تتحوّل إلى عجلة، ويكون الإكثار من الإنتاج ضارًّا حين يتّخذ صورة تجريف للعقل المنهك. وبوسعنا أن نذكر عشرات الأمثلة لأدباء عظام كانوا شديدى السرعة فى الكتابة، (دوستويفسكى، بلزاك، ترولوب، ديكنز)، وكانت السرعة عندهم ناجحة عن الرغبة فى رفع مستواهم المعيشى، وأنتجوا مع ذلك كتباً خالدة لم يعتورها خلل أو نقص.. والإنتاج الفنى من أجل المال ليس عيباً فى حدّ ذاته كما يزعم تولستوى، اللهم إلا إن كان

الاشتغال بالقضاء أو الدبلوماسية أو الجندية أو الزراعة أو غير ذلك لقاء أجرٍ عيبا. وثمة عدد من الفنانين ممن قضى الفقر على مواهبهم أكبر من عددٍ أولئك الذين قضى عليهم الغرور، أو أضرّبهم الثراء الفاحش.

هذا وقد يكون تأخر الشهرة والنجاح مدعاة للاسترخاء، وسبباً في الركون إلى الكسل. إذ ليس لدى الكاتب أو الفنان المغمور حافز يدفعه إلى المواصلة والإنتاج المتدفق، مادام لا يرى جمهوراً ينتظر إنتاجاً جديداً له، أو ناشراً يستحثه، أو رئيس تحرير يقف له بالمرصاد. وما من أحد بوسعه أن ينكر أن المثابرة والعمل المتواصل يساعدان على صقل المواهب وإتقان الصنعة، وأنهما لازمان للفنان لزوم التدريب المستمر للرياضيّ.

غير أن أبرز النقاط الإيجابية فى الشهرة والنجاح فى رأيى هو حرص الفنان بسببهما على ألا يهبط مستواه، وخشيته الدائمة، والمؤلمة المأساوية أحياناً، من أن يأتى إنتاجه الجديد دون إنتاجه السابق . فهو دائما فى خوف على موهبته من أن يعتريها نقصان ، وفى شك من قدرته على أن يجعل إنتاجه الجديد فى مستوى إنتاجه الأخير الممتاز. وهو يعلم أن النقاد والجمهور بصفة عامة لديهم ميل خبيث إلى أن يحكموا بضعف الإنتاج الحديث بالمقارنة بالإنتاج القديم الذى هلّلوا له وأشادوا به.. والفنان يدرك أن الجمهور متقلّب هوائى، وأنه وقد كان بمقدوره أن يرفعه إلى السماء، على استعداد دائما، وفى أية لحظة، لأن يخسف به الأرض، وأن ينقل إعجابه وتهليله إلى غيره.. فالنجاح إذن هو خير ضمان لمحاولة الفنان أن يُبقى فنّه على مستواه الرفيع، وأن يُشلّ يده عن الإسفاف، وعن الاستهانة بجمهوره والاستخفاف.

- ٦ -

مُعايشة الواقع الحيّ

يلجأ الكثيرون منا وقت المِحَن والأزمات إلى إيجاد صلة بماض هو فى زعمهم «مجيد»، أو - على الأقل - «آمن هادئ مستقر».. ولا ننكر أن الانغماس فى الماضى يخففّ من حدّة الضغط العصبى (كما يخفّف إخفاء النعامة لرأسها فى الرمال من حدة توترّها)، ويلهى - كما تلهى المخدرات متعاطيها - عن الواقع، ويريحنا ولو لساعات من التفكير فى حاضر دائب التغيير ولا شكل له، وفى مستقبل لا نطمئن إلى الصورة التى سيكون عليها. غير أنه من المؤكد فى رأيى أن هذه الظاهرة - ظاهرة الحنين إلى الماضى - تنطوى على مخاطر هائلة، أخفها الميل إلى تزييف التاريخ، والافتقار إلى الأمانة فى تسجيل أحداثه أو تخيّلها، واتخاذ موقف من شخصياته هو أشبه شىء بعبادة الأسلاف التى عرفها أهل العصور السحيقة. أما الخطر الأكبر فيكمُن فى أن الاستغراق فى الماضى والحنين إليه ينتقصان من قدرتنا على الإحساس بالسعادة الحقة، إذ يشلان من إمكانية مواجهة الحياة المعاصرة، والتصدّى لمشكلاتها بمحاولة جادة نشطة لإيجاد الحلول، والإعداد للمستقبل، ويعطل من القدرة على الخلق والإبداع.

قِدَم الظاهرة:

ولا تقتصر هذه الظاهرة وهذا البكاء على الأطلال على زمننا. فقديما عبّر امرؤ القيس والمتنبى، وفيرجيل وبترارك، بل وهوميروس نفسه، عن

الحنين إلى ماض «مجيد سعيد»، يختلف في كل مظاهره عن حاضرهم «التافه التعس»، وإلى سلف «صالح» يتمتع بكل ما يفتقر إليه معاصروهم من «القوة والشهامة، وكريم الخلق والسجايا». وثمة نص فرعوني يشكو فيه صاحبه من أن شباب زمنه لم يعد يبدى من الاحترام للآباء ما كان يبديه الشباب في الماضى! كما أن ثمة امرأة عربية في القرن الأول الهجرى سُئلت عن سبب لزومها دارها، فأجابت بقولها: «قد كنت أخرج والناس ناس، أما وقد فسد الناس فلزوم بيتى أجدر بى»!.

فإن كانت ظاهرة الحنين إلى الماضى والتهرب من معايشة الواقع الحىّ قديمة قدم الماضى نفسه، فإنه لم يحدث في التاريخ كله أن اتخذت مثل هذه الصورة الوبائية التى اتخذتها خلال نصف القرن الماضى، ولا كان الناس قبل الآن يستشعرون مثل هذه الرغبة العارمة في الهرب من الحاضر، أو أقل تحرّجا من التصريح بهذه الرغبة، وأكثر وضوحًا فى التشدّق بسحر الماضى وبريقه. وقد ساد بين الناس الاعتقاد بأن كل قديم هو بالضرورة ثمين نفيس، وارتبط الماضى في أذهانهم بالبساطة والراحة والإحساس بالأمن والحياة الطبيعية السهلة، مما يخالف وطأة الحاضر وتعقّده. ولو أن الناس سئلوا أى زمان يفضلون العيش فيه لذكرت غالبيتهم أىّ عصر عدا عصرهم. وقد اتسع مؤخرا نطاق الماضى الذى يحنون إليه وامتدّ. فبعد أن كانوا يحنون إلى ما قبل عشرين قرنا أو عشرة، أو ما قبل قرنين أو قرن واحد، باتوا الآن يتنهدون لذكرى الفترة ما قبل أربعين أو ثلاثين عاما فحسب، ويُقبلون على اقتناء ما يذكّرهم بتلك الحقبة.. بل إنه حتى الحقب القبيحة بيّنة السوء، قد بات لها الآن سحر ورونق. فالكثيرون من شيوخ إنجلترا مثلا يحنّون إلى الزمن

الذى كان النازيون فيه يقصفون بلدهم بالقنابل باعتباره زمنًا سعيدًا، ويذكرون ما كانوا يتحلون به وقتها من إيمان قوى، وثقة فى انتصار الحق على الباطل، وقدرة بطولية على احتمال الآلام والمشاق..

ذلك أنه من السمات الجوهرية لمشاعر الحنين إلى الماضى أنها تستبعد دائمًا العناصر البغيضة المؤلمة من الذكريات. فذكرياتنا عن الطفولة غالبًا ما تتجاهل أمراضها ومتاعبها وشجاراتها العائلية. أما الآلام فطابع يومنا هذا، وحاضرنا هذا.. وقد يختار بعضنا الاستغراق فى ذكريات زمن قريب، كالطفولة أو الشباب، وقد يختار البعض استعادة ذكرى زمن سحيق، كعصر الإغريق أو عهد الخلفاء الراشدين. وكثيرًا ما نردّد القول بأن الحياة فيما مضى كانت ذات معنى وطعم وهدف، وأن الناس «كان فيهم الخير»، والعلاقات الإنسانية تتسم بالدفء والتراحم والتعاطف. وما السرّ فى إقبال السياح على التقاط الصور الفوتوغرافية وشراء ما يذكرهم برحلاتهم، سوى إدراكهم أنهم حين يتأملونها فيما بعد، سيتخيلون أنهم كانوا يشعرون وقت التقاطها أو شرائها بسعادة لم يكونوا فى الحقيقة يشعرون بها.. وقد قيل: «انتظر حتى يصبح الحاضر ماضيًا، وسترى كيف كنت سعيدًا وقتئذ»!!..

□□□

وقد شاعت هذه الظاهرة فى مصر شيوعًا رهيبًا فى الحقبة الأخيرة. فأحب الفترات إلى القلوب الآن هى العشرينيات والثلاثينيات والأربعينيات من هذا القرن، حين كانت المواصلات صالحة لاستخدام الآدميين، والشوارع لا تعرف الزحام، والسماء خالية من سحابات

التلوث، وحين كانت يافطات «شقة للإيجار» تصادف الأعين فى كل طريق، وسيارات الأجرة تقف فى أدب لكل من يشير لها بالوقوف، وحين كانت الحياة خالية من التوتر والضغوط العصبية والتكالب على كسب المال، وقبل أن تفسد الأخلاق وتخلو العلاقات الاجتماعية من التآخي والتراحم.. وأحب الأفلام إلى مشاهدى التليفزيون الآن عندنا هى أفلام على الكسار ونجيب الريحاني ومحمد عبد الوهاب وغيرها من أفلام تلك الحقبة. وأحب الفرق الموسيقية والغنائية إلى المستمعين هى فرقة الموسيقى العربية بما تقدمه من ألحان داود حسنى وسلامة حجازى وسيد درويش.. وقد خصصت مجلات اليوم صفحة كاملة أو صفحتين لباب محبّب إلى النفوس هو مصر من سبعين عامًا أو من خمسين عامًا، يتنهد الناس عند قراءته. فإن ركبت سيارة أوتوبيس فقد يصعد إليك فيها بائع أقراص نعناع يهتف بك «نعناع بتاع زمان!» وكأنما مادام «بتاع زمان» فهو بالضرورة أفضل من أقراص نعناع اليوم.. وأحب صورة للعلم المصرى هى الراية الخضراء بهلالها ونجومها الثلاثة.. وقد كثرت محلات الأشغال الفنية التى تستلهم القديم فى صياغة الحلىّ والتحف.. وأضحى جانب كبير من حديث الناس عن أيام كانت البيضات العشر بقرش واحد، وكيلو اللحم بعشرة، وأيام كان لدى الناس أخلاق وذمة، وحين كان بوسع أفراد الطبقة العليا أن يتردّدوا على دور السينما والمسارح قبل أن تدهمها الغوغاء، وحين كان عدد التلاميذ فى الفصل لا يتجاوز العشرين، وعن مناطق سكنية ملوثة كانت إلى عهد قريب مزارع خضراء..
وأين إسكندرية الأمس ببلاجاتها النظيفة ومطاعمها اليونانية وحدائقها من إسكندرية اليوم التى اختل أمرها وتلوث بحرها وعلاها البلى والصدأ؟

وهل ظهر مطرب أو مطربة منذ أن مات عبد الوهاب وأم كلثوم؟ أو أدباء فى مثل قامة طه حسين وأحمد أمين؟ حتى سماء القاهرة نفسها كانت أكثر زرقة..

مدى صحة الدعوى:

قال محمد بن جرير الطبرى:

«حدّثنا وكيع عن هشام بن عروة بن الزبير عن أبيه عن عائشة أم المؤمنين أنها كانت تنشد بيت لبيد بن ربيعة:

ذهب الذين يُعاش فى أكنافهم
وبقيتُ فى خَلَفٍ كجِلْد الأَجْرَبِ

ثم تقول: رحم اللهِ لبيدا! كيف لو أدرك من نحن بين ظهرانيهم!.

قال عروة: رحم اللهَ عائشة! فكيف بها لو أدركت من نحن بين ظهرانيهم!..

قال هشام بن عروة: رحم اللهَ أبى! فكيف لو أدرك من نحن بين ظهرانيهم!..

قال الطبرى: رحم اللهَ هشاما! فكيف لو أدرك من نحن بين ظهرانيهم!..

هذه القصة وأمثالها توضح عمومية ظاهرة الحنين إلى الماضى وأهله، وأنها تشمل الشعوب كافة، فى العصور كافة. وعمومية الظاهرة تدفعنا إلى الشك فى صحة الدعوى ومصداقية الشعور بأن الأمور فى تدهور مستمر فى كل مكان. فلو أن الشباب حقًا كان قد بدأ يفقد احترامه للآباء منذ

زمن قدماء المصريين، واستمر هذا الاحترام في التضاؤل تدريجا بعد ذلك، جيلاً بعد جيل، لما بقي منه شيء على زمن الرومـــان علـى أكثر تقديـر! ولو أن الأخلاق شرعت في الانحطاط منذ زمن لبيد، وبدرجة أحست بها عائشة، فعروة، فهشام، فالطبرى، فالأجيـال التاليـة جيـلاً بعـد جيـل، لكان من العجب أن نسمع بوجود بقية منــها فـى عـهد حسنى مبـارك! فالأمر إذن لابدّ راجع إلى طبيعة بشرية تميل دومًا إلى الانتقـاص مـن قـدر الحاضر، وإضفاء مسحة رومانسية على الماضى. وهو ما يتمثل فى قولهـم: «أزياء العام المنصرم قبيحة، وما قبل عشـر سنوات مضحكـة، ومـا قبـل خمسين عامًـا لطيفـة، ومـا قبـل مائـة عـام رومانتيكيـة، ومـا قبـل مائـة وخمسين عامًا رائعة!».

والمؤكد عندى أن الماضى لم يكن له ســحره، أو علـى الأقـل، لم يكـن ساحرًا بالدرجة التى يخالها الناس.. فـإن قبلـت شـهادة رجـل مخضـرم مثلي ولد في زمن الملك فؤاد، قلـت إن الأحـوال لم تكـن بالروعـة التـى يظنها الكثيرون مـن شـباب مصـر اليـوم، ولدَعَوْتـهم إلى مقارنـة الأحـوال المعيشية للفلاحين والعمال والحرفيين بالأمس بأحوالهم فـى يومنـا هـذا، والوضع الاجتماعى للمرأة فى مستهل القرن بوضعها الآن، وكـذا بالنسـبة لقدر الوعى السياسى والإلمام بما يدور فى العالم الخارجى، وتفتح العقـول للتيـارات الفكريـة المختلفـة، وإدراك معنـى حقـوق الإنســان، والعنايــة بالطفل، واحترام حق الأبناء فى استقلال الرأى.. إلى آخره..

أسباب الظاهرة:

وإنما يجد الناس للماضى سحرًا ورونقًا لأسباب بعضها قـائم فـى كـل عصر، وبعضها يتصل بعصرنا الحديث وظروف الحياة منذ نهاية الحـرب العالمية الثانية..

فأما عن الأسباب القائمة في كل عصر فمنها:

أولاً: أن الماضي إن بدا أكثر حيوية وأعظم بريقًا فليس ذلك لأنه كان أفضل من الحاضر، وإنما لأننا كنا أنفسنا أكثر تألقًا وحيوية أيام الطفولة والصبا والشباب، ثم ما عدنا الآن نشعر بالأشياء والأحداث بنفس القوة السالفة.. فأفلام يوسف وهبي هي بالتأكيد دون مستوى أفلام يوسف شاهين. غير أنه إن كان الشيوخ منا يشاهدون اليوم من جديد فيلم «بنات الريف» على شاشة التليفزيون فتدمع أعينهم، ولا تدمع أعينهم إن شاهدوا «اليوم السادس» ليوسف شاهين، فإنما تفسير ذلك هو أنهم حين شاهدوا الفيلم الأول في شبابهم كانت قدرتهم على التأثر والتجاوب أكبر من قدرتهم على التأثر بالفيلم الثاني بعد أن شابت منهم الرءوس ووهنت العواطف، فجاء تفضيلهم الأول على ضوء استعادتهم لذكرى جيشان عواطفهم وقت الصبا والشباب.. كذلك الحال بالنسبة لما قرأناه في شبابنا من كتب، أو استمعنا إليه وقت الصبا من الموسيقى والأغاني. فإن نحن أعلنا اليوم تفضيلنا إياها على غيرها، فإنما نحن في الواقع نعلن تفضيلنا لأنفسنا وقت قراءتها أو الاستماع إليها أول مرة على أنفسنا اليوم. فالحنين إلى الماضي هو في حقيقته حنين إلى المشاعر القديمة لا إلى الأشياء القديمة .. حنين إلى أيام كنا نخال كل شيء ممكنا ومتاحا لنا. أيام كنا نشعر بالحب ونثير في الغير مشاعر الحب تجاهنا ، أيام كانت الحياة أمامنا لا خلفنا..

ثانيًا: أن الماضي يحمل في طياته سمة الأمن والاطمئنان.. كل شيء فيه قد تحدّد مكانه، واستقرت معالمه، ومعروفة سلفا ملابساته وعواقبه.

فهو كالمسرحية نـأتي لمشاهدتها بعد قراءة نصّها وقد ألمنا بأحداثها وعرفنا خاتمتها.. هو معروف ومفهوم وآمن ثابت لا يتغير ولا يتحوّل. أما الحاضر فمجهول العواقب، متميع المعالم، لانكاد نفرق إزاء تعدّد جوانبه وانغماسنا فيه بين ما له قيمة دائمة، وما هو عرضي زائل..

ثالثًا: ذلك السخط الملموس دائما عند الكافة على الحاضر. فالحياة في جوهرها أكثرها شرّ. غير أن الناس تأبى أن تصدّق أن الشركان دوما طابعها، وتتوهم أن الحياة في الحاضر وحده هي التي يغلب الشر والنقائص عليها. وعلى ذلك فهم يتصورون أن الحياة في الماضي كانت دائما ذات غرض وهدف، وأن الناس فيه كانوا لا يعرفون مللاً أو ضياعًا وحيرة.

رابعًا: أن جهل الغالبية بالتاريخ يسهّل على الناس تزييف الماضي. فلو أننا عدنا إلى الماضي بملابساته الحقيقية بعد تقديسه وتفخيمه، لأصابتنا خيبة أمل عظيمة. ولو أتيح لنا أن نلتقي بأبطاله والشخصيات التاريخية التي نعجب بها، لكان الأغلب أن نفجع فيهم. وكلنا يعلم هذه الحقيقة من واقع تجربتنا حين نعود لزيارة بقعة لها في أنفسنا ذكريات سعيدة، أو حين نلتقي لأول مرة بأديب أو فنان أو سياسي كنا نخاله كاملاً.. وهل ننسى كيف ظل توفيق الحكيم يحلم بباريس وزهرة العمر، فلما أراد عبد الناصر أن يكافئه في شيخوخته بتدبير عمل له فيها، لم يطق أن يمكث بها أكثر من أشهر قلائل؟. وفي ظني أنه لو كان بوسعنا أن ننبيء هارون الرشيد أوسيف الدولة الحمداني مثلا بأسباب تفضيلنا لعصره على عصرنا، لظن بنا الخبال، ولضحك من جهلنا بزمنه..

أما عن الأسباب المتصلة بعصرنا خاصة فمنها:

أولاً: أنه بالرغم من أن المستقبل كان دومًا غامضًا بالنسبة لأبناء أىّ عصر، فهو بالنسبة لأبناء زماننا، وبالرغم من كتب ألفين توفلر وأمثاله، أكثر غموضاً وأحلك ظلمة، فى حين أضحت دواعى عدم الاطمئنان إليه أقوى مما كانت عليه فى أى وقت مضى، وذلك بسبب انتشار الأسلحة النووية، وتلوث البيئة، وتآكل مصادر الثروات الطبيعية والطاقة، واضطراب أسس الاقتصاد العالمى..

ثانيًا: ما ساد شعوب المجتمعات الحديثة فى معظم أنحاء العالم من شعور بأن عملية التحديث لم تحل الجانب الأكبر من مشكلات البشرية، بل وتسببت فى خلق مشكلات جديدة. فثمة خيبة أمل فى فكرة التقدم والتحسن المستمر التى ازدهرت فى أواخر القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر، وتضاءلت الثقة فيما يخبئه الغد لنا، وفى قدرة العلم على استئصال ما تعانيه البشرية من شرور. وقد فقدت الحداثة ذاتها ما كان لها فى أعيننا من سحر وروعة، وبات الناس يتطلّعون إلى الفرار منها بالعودة بذاكرتهم إلى الماضى، بعد أن تفاقمت ثورتهم على الحاضر واستفحل نفورهم منه..

ثالثًا: أنه مما ساعد على تغذية مشاعر الحنين إلى الماضى تزايد معدّل سرعة التغيرات فى عصرنا، وضخامة هذه التغيرات، وما يحدث من ثورات كبرى تنقل مجتمعاتنا فى زمن قصير من وضع إلى وضع مغاير تماما، خاصة منذ الثورة الفرنسية. وهو أمر من شأنه أن يجعل الماضى القريب يبدو وكأنه ماض بعيد، ويفسر ما سبق أن ذكرناه عن اتساع نطاق

الماضي بحيث بات الناس يحنون إلى فترة ما قبل ثلاثين عاما أو أربعين عاما حنينهم إلى العصور السحيقة..

رابعًا: وهو سبب قد تختص به مصر، ويتصل بما شاع بين شبابها ومثقفيها ومفكريها من خيبة أمل وفقدان الثقة في مختلف الحلول والمذاهب والأيديولوجيات التى جربتها مصر واحدة إثر أخرى على مدى قرن من الزمان، مع حماس زائد في كل حالة، واستعداد للتضحية بالنفس في سبيلها، وإيمان مطلق بفاعليتها، وتهليل وتمجيد لقادتها، واحتمال السجن والنفي والتشريد والتعذيب من أجل محاولة تطبيقها، حتى إذا ما طُبقت، لم ينجم عنها غير شيوع الفساد والدمار الاقتصادى، وانهيار القيم والأخلاق، وقمع الديموقراطية والحريات، وتفاقم المشكلات الاجتماعية.. قد جرّبنا الليبرالية والحكم العسكرى، والديموقراطية، وتعدد الأحزاب ونظام الحكم الواحد، والرأسمالية والاشتراكية والانفتاح الاقتصادى، والسير في ركاب الشرق والسير فى ركاب الغرب ، والقومية المصرية والوحدة العربية والانتماء الإفريقى، ونادينا بكافة الشعارات، وتلونت أجهزة إعلامنا بألف لون، وقلب كتابنا والصحافيون معاطفهم ألف مرة، ورقعوها بألف رقعة، وتغنينا بمدح الحكام ثم بهجائهم، وأقمنا لهم التماثيل ثم حطمناها بعد وفاتهم، وسمينا الشوارع والميادين بأسمائهم ثم غيرناها، وحاربنا إسرائيل ثم صالحناها، وقاومنا النفوذ الأمريكى ثم تعايشنا معه، وأبرمنا معاهدة صداقة أبدية مع الروس ثم مزقناها..

فما الذى بقي لنا مما لم نجربه بعد؟ ما الذى بقى لنا غير الاستغراق بكليتنا فى ماض قد استأصلنا من معالمه كل ما هو مؤلم مزعج، وأبقينا منها على كل ما هو مشرق مبهج؟..

عبادة الأسلاف:

فأما الجماعات الإسلامية فقد اختارت الماضى البعيد، عصر النبوة والخلفاء الراشدين والسلف الصالح. وقد لجأ أفرادها إلى ارتداء الجلابيب وإطلاق اللحى وفضّلوا الجلوس على الأرض عند تناول الطعام كخطوة أولى فى سبيل العودة إلى العصر الذهبى. وثمة أمران يدفعان الغالبية العظمى من هؤلاء إلى الاستغراق فى الحنين إلى الماضى، كلاهما يتمثلان فى عجز: العجز عن تبوء مكان يرضون به فى إطار النظام الاجتماعى والاقتصادى السائد، والعجز عن مواءمة تعاليم الإسلام مع معالم العصر الحديث وعن إقامة الجسور النفسانية مع المجتمعات غير الإسلامية.. فهنا ثورة على الحداثة، وتنفيس مرضى عن مشاعر العقم والقهر، وتفضيل مؤسف للهروب إلى الماضى على بذل الجهود الشاقة من أجل التأقلم والتكيف والتغيير، وللبقاء فى القوقعة إلى أبد الآبدين على مواجهة المصاعب والصدمات والتحديات، مع محاولة لإيهام النفس، وإيهام الغير، بأن هذا التفضيل للقوقعة ناجم عن كراهية لمظاهر الحياة الحديثة، وعن تعلق بماض مجيد، وعن التزام بتعاليم دين هو من هذا العجز والجبن برئ..

□□□

إن الحاضر هو الزمن الوحيد الذى نملك أن نعيش فيه. ولابد للواقع من أن يفرض نفسه فى وقت ما على من شاء مواجهته ومن لم يشأ. وإنما تتحقق المأساة وتقع الصدمة حين يتبدد الوهم، ويزول تأثير المخدر

بالإفاقة. كذلك فإن لن يكون بوسعنا إصلاح الواقع إصلاحا يوفر مقومات السعادة لنا إلا متى أدركنا زيف تقديس الماضى الميت ومُثُله، ومتى فهمنا أن تقديس الماضى لمجرد أنه ماض ينطوى على جهل، وأنه أشبه بالسراب الذى لا يعكس غير أوهامنا وأحلام يقظتنا، ومتى تصدّى المفكرون منا لبيان الجوانب الإيجابية فى الحاضر والعصر الحديث مما لم يكن القدماء ليحلموا ببلوغه وتحقيقه..

ربِّ جَنِّبْنى شُرْبَ هذا الكأس!

كنت وقتها أعمل وزيرًا مفوّضًا فى العاصمة الألمانية، سعيدًا بعملى، بمسكنى، بسعادة زوجتى فى حياتنا الجديدة، وسعادة بناتى الثلاث بمدرستهن، سعيدًا بمحاولتى الجادّة إضافة لغة جديدة إلى ما تعلّمتُه من لغات أجنبية، وبما أتيح لى، فى مسقط رأس بيتهوفن، من فرصة تعزيز ثقافتى الموسيقية.

وفى خضمّ هذا الهناء وراحة البال، نُقل السفير المصرى إلى موقع آخر، وحلّ مكانه سفيرٌ سرعان ما اصطدمتُ به، فما كان منه إلا أن كتب إلى وزارة الخارجية يطلب نقلى إلى القاهرة «لعدم استطاعته التعاون معى».

أُصبتُ وأصيب أفراد أسرتى بالصدمة والذهول من جراء قرار النقل، رغم أن الوزارة تكرّمت بتأجيل موعد تنفيذه لمدة ثمانية أشهر، حتى أتمكّن خلالها من بيع ما اشتريته من سيارة وأثاث، وتسديد ديونى، وحتى ينتهى العام الدراسى فى مدرسة بناتى. ومع ذلك فقد عشتُ خلال تلك الأشهر الثمانية فى كرب دائم، بسبب ما انتاب امرأتى من اكتئاب، وثورة البنات إذ يجدن أنفسهن يتنقّلن دون إرادة منهن من بلد إلى بلد، ومن مدرسة إلى مدرسة، فتضطرب دراستهن، وتنقطع صداقاتهن، ثم اضطرارى إلى قضاء المدة فى حال من القطيعة مع السفير، وتأثّر علاقاتى بغالبية زملائى نتيجة ميلهم أو اضطرارهم إلى مراضاة رئيسهم، ناهيك عن قلقى من أن يتأثّر مستقبلى فى السلك الدبلوماسى من جراء ذلك الشجار، ومن ألا أُوفّق فى تسديد ديونى قبل انتهاء مدة العمل بالسفارة.

حاولتُ عدة مرات أن أقنع الوزارة بإلغاء قرار النقل. وكنت أجدني أثناء تمشيتي اليومية أردّد بصوت مسموع قولة المسيح في محنته: «ربِّ جنّبني شرب هذا الكأس».. غير أن محاولاتي لم تصادف نجاحًا، ومرّت الشهور سراعًا حتى حلّ يوم الرحيل، ولم يكن في وداعنا يومها غير الأصدقاء الأجانب من الألمان والسلك الدبلوماسي، دون أيّ موظف بالسفارة.

في صباح اليوم التالي لوصولنا إلى القاهرة، اتّصل بي تليفونيا مدير دار الشروق للنشر، يخبرني أن أول كتاب لي، وهو «دليل المسلم الحزين» (وكنت قد أعطيته مخطوطته عند التقائي به في فرانكفورت عام ١٩٨١) قد صدر. فما مضت عدة أسابيع على صدوره حتى فاز بجائزة «أحسن كتاب في معرض القاهرة الدولي للكتاب»، وهي جائزة سلّمها لي وزير الثقافة عبد الحميد رضوان في احتفال مهيب.. ونشرت الصحف المصرية خبر الجائزة، فإذا بالأستاذ مكرم محمد أحمد رئيس مجلس إدارة دار الهلال يتصل بي ليطلب مني أن أوافي مجلة «المصور» بمقالات أسبوعية، وهي مقالات حول الدعوة إلى تطبيق الشريعة الإسلامية، أثارت ضجة وجدلاً كبيرين في مصر وخارجها، سرعان ما وجدت نفسي بعدهما كاتبًا مشهورًا، وإذا بالعروض تنهال عليّ من الصحف والمجلات ودور النشر في العالم العربي بطلب موافاتها بكتاباتي.

كان ذلك العام والسنوات التالية له أسعد سني حياتي وأهمها على الإطلاق. وإذ خطرت في ذهني في يوم من أيامها ذكرى نقلي من السفارة في بون إلى القاهرة، ساءلت نفسي عما عساه كان سيحدث – أو

بالأحرى ، ألاّ يحدث - لو أنه لم يدبّ خلاف بيني وبين السفير دعاه إلى طلب نقلي.. ومن يومها عاهدت نفسي عهدًا لا أزال إلى يومي هذا ملتزمًا به: هو ألا أسمح للحزن أن ينتابني من جراء حادث يقع لي، أو خبر أسمعه، وأن أرى الخيرة دائما فيما اختاره اللّه، حيث أن الغالب أن تكون الاستجابة لدعاء المرء في غير صالحه، وأن أرسّخ في أعماقي الاعتقاد بأن مسار حياة المرء تتحكّم فيه قوى خفيّة هي وحدها التي تدرك الغرض البعيد من كل ما يحدث له، دون أن تعبأ بفرحه أو ترحه. وتذكّرت قولة لتولستوي سجّلها في يومياته: «ما من أمر وقع لي، وتشاجرت بسببه مع القدر، إلا ثبت بعد سنوات قلائل أنه كان في صالحي».

وهكذا، وبعد أن كنت أردّد في بون صيحة المسيح: «ربٌّ جنّبني شرب هذا الكأس»، صرت أردّد في القاهرة وغيرها صيحته التالية (ومازلت أرددها):

- بل مشيئتك يارب، لا مشيئتي.

حول سلبيات مهنة الدبلوماسي

بعد أن أُحِلتُ إلى التقاعد وتركتُ العمل بالسلك الدبلوماسي، رأيتُ أن أجمع بناتي الثلاث أسالهنّ عما إذا كنّ يعتقدن أن مهنتي وإقامتنا الطويلة خارج الوطن قد أفادتاهن أم أضرّتا بهنّ، وعما إذا كان أولاد الدبلوماسيين وبناتهم بوجه عام من المحظوظين المنعَّمين، أم من المتضرّرين المحرومين.

أجَبْنَ جميعًا فى سرعة وفى ثقة وفى نفس واحد بأن مهنتى أضرّت بهن أفدح الضرر. وهما سرعة وثقة توحيان بأنهن قد سبق لهن التفكير طويلا فى هذا الأمر، ووصلن إلى رأى قاطع. ثم إنه لمّا يقطع بإخلاص إجابتهن أنه ما من واحدة منهن قبلت بعد تخرّجها من الجامعة الالتحاق بالسلك الدبلوماسى، أو قبلت الزواج ممن تقدّم لخطبتها من شباب الدبلوماسيين، خشية أن تجنى على أولادها مثلما جنيت أنا عليها!

أجبنني بأنهن عشن طفولتهن وصباهن ومقتبل شبابهن هائمات شريدات، لا تستقر بهن أرض، ولا يعرفن لأنفسهن مسكنا بعينه، ولا دامت صداقة لهن أكثر من ثلاث سنوات أو أربع، ولا اتصلت دراستهن فى ظل نظام واحد أو فى مدرسة واحدة ومع نفس المدرّسين، ولا كان لهن يد فى إطالة إقامتهن فى بلد أحببنه، أوفى قطع إقامتهن فى بلد كرهنه.. كل ما يذكرنه من حياتهن معى هو إعداد الحقائب وإفراغ الحقائب، واستقبال فى المطار وتوديع فى المطار، وبحث عن مساكن وهجر لمساكن، وعقد صداقات ونقض صداقات، ودراسة مضطربة أينما حللن، والإقدام على تعلم لغة أجنبية إثر لغة أجنبية يعلم اللّه وحده

ما إذا كن سيستخدمنها بعد مغادرتهن للبلد الذى يتكلم بها، وتنقّل لا ينقطع بين قارات مختلفة، وأنظمة سياسية واجتماعية واقتصادية متعددة، ومستويات حضارية متفاوتة، وعادات وتقاليد متباينة، وديانات وعقائد متصارعة. حتى إذا ما عُدْن إلى وطنهن لقضاء عام أو عامين فيه، وجدن أصدقاءهن الحميمين القدامى وقد بات لهم أصدقاء حميمون جُدُد، وصادفن السخرية من الكافة من عُجمة فى ألسنتهن متى تكلمن العربية، وقابلن الصعوبات فى محاولة التكيف، وتعجّب الناس من مسلكهن وزيّهن ونُطقهن وعاداتهن ومفاهيمهن عن الحياة، فإذا هن غريبات حتى فى وطنهن، أجنبيات حتى بين بني جلدتهن وأقربائهن.

لم أستطع لأقوالهن دَفْعا، ولا ملكت إلا أن أشعر إزاءها بالأسف والألم وتأنيب الضمير. غير أنى – وهو أمر طبيعى – حاولت جاهدًا أن أجد للصورة وجهًا آخر، وجانبا مضيئا يخفّف من ألمى بل ويُحيله إلى إحساس بالرضا والاطمئنان.

قلت: أولاً، ليس ثمة مهنة لا يعرف الناس لها مثالب وسلبيات لصيقة بها ونابعة من طبيعتها.. ألا يشكو أبناء العسكريين من فرط النظام وصرامته فى البيت؟ وأبناء الأطباء والصحافيين من انشغال آبائهم عنهم وقلة ما يقضون معهم من وقت؟ وأبناء المعلّمين والمحامين من إفراط آبائهم فى الكلام وضعف قدرتهم على الاستماع إلى الغير؟

حديثنا إذن عن سلبيات المهنة ممكن ومشروع، كحديثنا عن مخاطر المهنة.

غير أنى ذاكر لكنّ مَدَى غبطتى وراحتى إذ قرأت يومًا هذه الجملة فى كتاب المستشرق البريطانى برنارد لويس عن تاريخ تركيا الحديث:

«إن الغالبية العظمى من كبار رجال الدولة وشاغلى المناصب العليا فى الدولة العثمانية فى القرن التاسع عشر، كانت من أبناء الدبلوماسيين الأتراك».

فما عساه أن يكون سبب هذه الظاهرة إن لم يكن فى حياة أبناء الدبلوماسيين بصفة عامة، وفى تعليمهم، ما يجعلهم من المتميّزين المتفوّقين على أقرانهم؟

إنه لكثيرا ما خُيِّل إلىّ - رغم صحة كل ما ذكرتن عن المتاعب التى تعرّضتن لها - أنكن ولدتُنّ وفى أفواهكن ملاعق فضة! كلّ منكن قد صارت تملك ناصية خمس لغات أجنبية أوست، تتحادث بأيّها حديث أهل هذه اللغة. قد زارت قبل بلوغها العشرين أكثر من ثلاثين دولة، وأقامت السنوات الطوال فى سبع منها: فى غرب أفريقيا وشمالها، وشرق أوروبا وغربها، وشمال أمريكا وجنوبها، قد عرفت عن كثب مجتمعات شيوعية ورأسمالية، متقدمة ومتخلفة، بيضاء وسمراء وسوداء، مسيحية وإسلامية وملحدة، بل وكان لها صديقات وثنيات هن بنات جيراننا النيجيريين من قبائل الإيبو، وتعلّمت احترام ديانات الكافة وتقاليدهم، والجوانب الإيجابية فى معتقداتهم وعاداتهم. قد عاشت فى ظل أنظمة ديكتاتورية ثقيلة الوطأة، لا تعبّر عن الرأى إلا خلسة، ولا تنبس بالكلمة إلا همسًا، وفى ظل ديموقراطية تسمع فيها أكثر ما تسمع من أبنائها عبارة «نحن فى بلد حرّ!».. قد شهدت صرامة الألمان ونظامهم وجدّهم فى العمل، وشهدت مرح البرازيليين ولهوهم على الشاطئ واحتفالهم بكرة القدم والكرنفالات أكثر من احتفالهم بأى شىء آخر من أمور الحياة. راقبتْ مظاهر التفرقة العنصرية فى الولايات

المتحدة، ومشاكل الجنسيات المتعددة في الاتحاد السوفياتي، وتأثير الاستعمار الفرنسي في لغة الجزائريين وعاداتهم وطبائعهم، والانحسار التدريجي في اعتزاز البريطانيين القديم ببريطانيتهم..

فكم يا تُرى من المصريين قد أتيح لهم ما أتيح لكن من فرصة للاطلاع على ما اطلعتن عليه، ولاكتساب ما اكتسبتن من لغات وخبرات؟ ألا يقول المثل العربي القديم: «من لم يعرف غير لغته لم يعرف لغته، ومن لم يعرف غير وطنه لم يعرف وطنه، ومن لم يعرف غير دينه لم يعرف دينه ؟» .

وما من شك عندي في أن أبناء الدبلوماسيين وبناتهم قد عرفوا أكثر من غالبية بني جلدتهم لغات غيرهم وأوطان غيرهم وديانات غيرهم. وهم بالتالي مؤهّلون أكثر من غيرهم للحكم على مختلف جوانب الحياة في مجتمعهم، وأحدّ نظرة إلى هذه الجوانب، حتى إن بدوا غرباء في بلادهم، ومع الصعوبة التي يعانونها في التكيّف مع واقع الأحوال فيها. وعلى حدّ قول المتنبّي:

«إن الكريم غريب حيثما كانا!»

قالت الكبرى:

كل هذا صحيح أيضا، وكفيل بأن يُدخل إلى قلبك وقلوبنا العزاء، وأن يخفّف في نفوسنا مشاعر النقمة على قدرنا! أمر واحد جلل لا أحسبك تملك معه دفاعًا، وأعني به اضطرار أبناء الدبلوماسيين وبناتهم في طفولتهم إلى هجر كل ما هو مألوف من وطن وسكن ووجوه ومعالم إلى آخره، والانتقال فجأة إلى وسط جديد كل ما فيه غير مألوف.. فقد أكّد

علماء النفس جميعًا دون استثناء أن انتقال الطفل على هذا النحو من المألوف الذى بدأ يستشعر إزاءه بالدفء والاطمئنان، إلى الجديد غير المألوف الذى سيستشعر إزاءه بالحيرة والخوف، من المؤكد أن ينجم عنه إحساس بالافتقار إلى الأمن قد يستمر معه طيلة الحياة، وأن يؤثر فى مواقفه مما حوله ومن حوله، وخبراته فى المستقبل. وهم لذلك ينصحون الآباء بأن يضمنوا أن يُحاط الطفل قدر المستطاع بما هو ثابت متكرر، وبأن يتجنّبوا – حتى يبلغ الطفل سن السابعة أو الثامنة – تغيير المسكن أو الأثاث أو العادات أو الوجوه المحيطة أو المدرسة إلى آخره، حتى ترسخ دعائم أسس متينة يمكن بعدها التنقل والتغيير دون عواقب وخيمة.

قلت :

صدقت. هذا هو أخطر آثار المهنة على أبناء الدبلوماسيين.. وعلى المقبلين على اختيارها من الآباء والأمهات أن يوازنوا قبل اتخاذ قرار بشأنها بين هذا الاحتمال شبه المؤكد أن يفقد أولادهم الإحساس بالأمن، وبين الاحتمال شبه المؤكد هو أيضا أن يكتسب أولادهم وبناتهم من التميّز العقلى، ومن سعة الأفق، ما هو كفيل بأن يجعلهم من صفوة أفراد مجتمعهم، ومن قادته فى مختلف الميادين..

«ساكن قصادى.. وباحبّه»!

فى سنوات صباى ومستهلّ الشباب، كانت ظاهرة عشق بنت الجيران، أو ابن الجيران، من معالم حياة أبناء جيلى وبناته.. إذ من ذا الذى لم يبدأ منّا نشاطه الغرامى بالتطلّع إلى ما وراء نوافذ جيرانه؟ وهى ظاهرة تكاد الآن أن تكون فى طريقها السريع إلى الاندثار، وكذا كل ما يتعلّق بها ويتناولها من أغان وقصص وقصائد.

وراء ذلك سببان رئيسيان، وثلاثة أسباب ثانوية:

السبب الأول، وهو الأهمّ: تلك القيود والتقاليد الاجتماعية التى كانت تفرض على الشباب (خاصة الإناث) قدرًا كبيرًا من العزلة والفصل بين الجنسين. وهى عزلة انتهت بما بتنا نخبُره اليوم من الاختلاط فى النوادى الرياضية، وأماكن العمل، ومختلف المنتديات وأماكن اللهو، مما يسمح للشباب من الجنسين بمساحة أوسع من حرية الانتقاء، وفرصة المقارنة.. إذْ مَن كان يُتاح للفتاة منذ نصف قرن أن تراه غير شاب من أقربائها يزور بيتها مصحوبًا بأبويه، أو جار تراه من نافذة غرفتها واقفًا منذ مدة فى مواجهتها فى انتظار فتحها للشباك؟

نظرةٌ فابتسامةٌ فسلامٌ   فكلامٌ فموعدٌ فلقاءُ

(أحمد شوقى)

السبب الثانى (وهو لا يقلّ عن الأول فى الأهمية): تلك النظرة الرومانسية التى كانت فى الماضى تميّز موقف كل من الجنسين من أفراد الجنس الآخر.. فهنا عشق لابنة الجيران لمجرد أنها أنثى (فى سن

مناسبة)، وعشق لابن الجيران لأنه ذكر (في سنّ مناسبة). ثم لا يبقى بعد ذلك على العاشق إلا أن يخلع على معشوقه أسمى الصفات وأرقّها وأنبلها، حتى قبل أن يتبادل معه كلمة. وليس من المستبعد إن كان لأحدهما اتجاه أدبى (أو حتى بدون اتجاه أدبى) أن يقول فى الآخر شعرا يصفه فيه بصفات لا يمكن أن يكون الوقت قد أتيح له كى يتبيّنها فيه.

لم يكن من الشائع وقتذاك الحديث عن ضرورة اتفاق المشارب والأمزجة، والإصرار على توافر شروط كتقارب مستوى الثقافة واتحاد الميول. فهنا اكتفاء واضح بمجرد اختلاف الجنس، وحُسن الصورة. ثم لا بأس بعد ذلك بتناسب فى السن وتقارب فى المستوى الاجتماعى والمالى، تمامًا كما فى الزيجات التى كانت تدبّرها الخاطبة فى ذلك الزمان. ذلك أن القوم فى بلادنا وقت بساطة العيش لم تكن تميّز بين أفرادهم تلك الاختلافات الشاسعة التى تميّز أفراد الزمن الراهن، ولا كانت الاهتمامات وقتها متنوعّة ومتخصصة مثلها اليوم، بحيث كان الحديث فى زمن صباى عن عدم اتفاق الميول بين هذه المرأة وهذا الرجل كالحديث عن اختلاف الميول بين هذه البقرة وهذا الثور.

أما عن الأسباب الثانوية الثلاثة فهى:

الأول: ما طرأ على المعمار الحديث وتخطيط المدن من تطوّر، بحيث لم تعد المساكن متقاربة كما كانت فى الماضى حين كان بالوسع تبادل الحديث الهامس، (بل والتقاذف بالرسائل الغرامية فى بعض الأحيان)، وأدّى الاتجاه إلى توسيع الشوارع لدواعى الصحة وغيرها إلى أن أصبح

الجار لا يكاد يميز ملامح جارته إلا بصعوبة (أو بالاستعانة بنظّارة مكبّرة)، مع استحالة تبادل الحديث ولو بالصراخ، ناهيك عن الهمس.

الثانى: ما طرأ على العلاقات بين الجيران فى زمننا من التردّى والتدهور. فبعد التزام صارم فى الماضى بتوصية الرسول عليه السلام «على سابع جار»، وبعد أن كان المرء على معرفة كاملة بكافة جيرانه، وعلى صلة دائمة بهم، يشاركهم الأفراح والأحزان، ويلجأ إليهم وقت الحاجة والأزمات، بل ولا يجد غضاضة فى أن يطلب من جاره «تلقيمة» بُنّ، أو بعض السكر أو الجاز إن جاءه زائر مفاجئ، أصبحنا اليوم والمرء لا يكاد يعرف هويّة جيرانه، ومن النادر أن يتبادل معهم التحية - ناهيك عن الحديث - إن التقى بهم وجها لوجه. بل الغالب أن تكون العلاقات بين الجيران أبعد ما تكون عن أن توصف بالودّية، بعد أن كثرت الشكوى من استخدام الجار لمذياعه أو تلفازه استخدامًا مقلقًا للراحة، أو إلقائه القمامة على نحو يتضرّر جاره منه.. إلى آخره.

الثالث: اختلاف الانتماء الطبقى لسكان الحىّ الواحد. فقد كان سكان الحىّ أو الحارة أو العمارة فى الماضى هم فى العادة من مستويات اجتماعية ومالية متقاربة، بحيث يمكن للفتاة أن تطمئن إلى أن ابن الجيران هو من عائلة شبيهة إلى حدّ كبير بعائلتها، بل وقد يكون أبوه محترفًا لنفس مهنة أبيها أو لمهنة مماثلة لها.. أما اليوم، وبعد أن أخْنَى الدهر على الكثيرين من أبناء الطبقة المتوسطة وأحالهم إلى بروليتاريا كادحة، وبعد أن «نال الغِنَى وَلَدُ المُتْربِ» على حدّ تعبير شوقى، أضحى من المألوف الشائع أن يجاور مسكَن الوزير مسكن الراقصة، وأن تُطلّ نوافذ شقة الأستاذ الجامعى على شقة تاجر المخدّرات..

بعض مشكلات الناشرين ورؤساء التحرير!

ثمة مشكلة لا شك فى أنها كثيرا ما تسبب الحرج لرؤساء التحرير والناشرين، والحيرة للقراء، والغضب لدى الكُتّاب الناشئين..

هذه المشكلة هى: ماذا لو أن كاتبًا كبيرًا شهيرًا، أو صاحب عمود أو مقال يومى أو أسبوعى ذائع الصيت، تقدم إلى الناشر أو إلى رئيس التحرير بكتاب غث، أو مقال سخيف لا يصدر إلا عن شيخ أدركه الخَرَف، أو مراهق ظن فى نفسه موهبة الكتابة؟ ماذا عساه أن يصنع حينئذ وهو يجد حرجًا فى أن يُلقى بالكتاب أو المقال فى سلة المهملات شأنه عادة مع كتابات الناشئين (حتى الجيدة منها)، ولا يستطيع أن يواجه المؤلف الكبير بعبارة: «سيدى الفاضل، هذا الذى كتبته محض هراء!»، ويستفظع أن تصدر الجريدة أو المجلة دون العمود اليومى أو الأسبوعى فى موقعه المعتاد، وقد يعذّبه إغراء فكرة أن الكتاب مهما بلغت تفاهته سيلقى رواجًا لدى جمهور المعجبين بالكاتب الكبير، أو ترضيه فكرة أن صحيفته أو مجلته تحوى مادة بقلم أحد المشاهير؟..

السؤال صعب، قد خطر بذهنى بعد قراءتى مؤخرا مقالاً لكاتب ذائع الصيت فى صحيفة عربية كبيرة يكتب لها عمودًا يوميًّا منذ عشرات السنين، يشكو فيه من أن المرآة الجانبية لسيارته قد سُرقت، فما اشترى بديلة لها حتى سُرقت هى أيضا بعد أيام قليلة. وحين عبرّ لبواب العمارة التى يسكنها عن ضيقه، عزاه البواب بقوله إن سيارة جاره لم تُسرق منها المرآة الجانبية فحسب، بل والطاسات والمساحات أيضا!..

سأحاول من جانبى أن أورد بعض الإجابات المحتملة:

وأبدأ فأقول إنه وإن كان من السهل نسبيا على ناشر الكتب أن يدفع ما يأتيه من مخطوطات إلى قارئ موظف عنده يثق فى رأيه ليقدم أحكامه بشأنها، فإنه ما من أحد يتوقع من رؤساء تحرير الصحف والمجلات (أو حتى من معاونيهم الرئيسيين محدودى العدد) أن يقرءوا كل ما يرد إليهم يوميًّا من أكوام النصوص من كل من ظن أنه قادر على كتابة مقال جيد، وهم الذين لا يكادون أن يجدوا الوقت للجلوس إلى وجبة ساخنة واحدة، أو للاستمتاع ساعة بصحبة زوجاتهم وأبنائهم..

قد يشعر الكاتب الناشئ - كما سبق القول - بمرارة شديدة لها بالقطع ما يبررها إذ يقرأ تفاهات المشاهير، وهو الذى يجد صعوبة كبرى فى إقناع الصحيفة بأن تنشر ما يعتبره مقالاً رائعًا له.. غير أن بوسع رئيس التحرير أن يورد على هذا إجابة ذات شقين:

الأول: أنه فى حين يجد ناشر الكتب من واجبه المهنى، بل ومن مصلحته المادية، أن يكتشف المواهب الجديدة، وأن ينشر للنوابغ من الأدباء الشبان، فإن رؤساء تحرير الجرائد والمجلات هم فى العادة غير مسئولين عن تقديم أعمال المواهب الناشئة (ما لم يكن هذا هو الغرض الرئيسى لدى مجلة متخصصة)، وإنما يرون مسئوليتهم الكبرى فى إرضاء جمهور القراء، ويعتقدون أن أحد السبل الرئيسية إلى هذا الإرضاء هو استكتاب المشاهير من أصحاب الأقلام..

والثانى: أن القائمين بالتحرير - مهما عظمت حصيلة قراءاتهم وثقافتهم - لا يمكن أن تتوفر لهم الثقة فى أن المقالة الجيدة أو القصة القصيرة الرائعة التى وصلتهم من شاب مغمور لم تُسرق فكرتها (أو حتى

بحذافيرها) من كاتب آخر، أو من كتاب غير مشهور. ونذكر كمثال لذلك حادثة إعلان القسم العربى من هيئة الإذاعة البريطانية من نحو عشرين عامًا عن مسابقة أحسن قصة قصيرة، وكان الحَكَم فيها الروائى السودانى الطيب صالح، وفاز بالجائزة الأولى فى المسابقة شاب مصرى لم يسمع باسمه أحد، ثم اتضح فيما بعد أن القصة الممتازة التى تقدم بها قصة قديمة ليوسف إدريس لم يكن الطيب صالح قد قرأها..

مثل هذه الأعذار أعذار مشروعة ومقبولة تماما. أما غير المقبول وما من حق الأدباء الناشئين أن يغضبوا منه، فهو أن تنشر الجرائد والمجلات مواد معينة لا من أجل إرضاء قرائها وإنما لإرضاء كاتبيها! فهذا سفير سابق لدى دولة عربية اعتاد أن يخصص سيارة السفارة لتنقلات رئيس تحرير جريدة معينة فى بلده كلما حل زائرا بتلك الدولة، وأن يخرج معه للتسوق أو أن يبعث إليه باحتياجاته فى الحقيبة الدبلوماسية، ثم إذا به بعد إحالته إلى المعاش وقد عُين كاتبًا لعمود أسبوعى فى تلك الجريدة ينشر فيه ما شاء من سخافات، لمجرد رغبة رئيس التحرير فى رد الجميل.. وهذه سيدة واسعة الثراء تدعو إلى حفلاتها الفاخرة هذا المحرر الكبير أو ذاك وتوافيه من حين لآخر بهداياها الثمينة، فيرى لزامًا عليه أن ينشر ما تبعث به إليه من قصص كتلك التى تكتبها فتيات المدارس الثانوية، إما من قبيل الاعتراف بأفضالها الماضية، أو لضمان استمرار أفضالها التالية، خاصة إن كانت السيدة تتمتع إلى جانب ثرائها بمسحة من جمال.. وهذا رجل ثقيل غبى، خال من الثقافة والمواهب، قد تمكن لسبب أو آخر من نيل الحظوة لدى أحد الرؤساء وعلية القوم ، ورجاه أن ينبه على رئيس تحرير هذه الصحيفة أو تلك أن ينشر له «خواطره» فإذا

رئيس التحرير لا يملك إلا أن يمتثل للإرادة السنية خشية أن يناله من صاحب الإرادة مكروه.. على كل هذه الأحوال وأمثالها تنطبق القولة الخبيثة بأن نجاحك لا يتوقف على ما تعرفه، وإنما على من تعرفه!..

إنه ما من شك فى أن ميدان النشر حافل بالمظالم. والمظلمة الرئيسية فيه تتلخص فى عبارة واحدة: أن صاحب الموهبة الحقيقية يجد عناء شديدًا طويلاً لا مبرر له حتى يُفتح باب له فيجد لنفسه منفذًا إلى النور، حتى إذا ما نجح فى إرساء دعائم شهرته، ظلت الأبواب جميعًا مفتوحة له على مصراعيها حتى لو ضاعت موهبته ونضبت قريحته. وبوسعنا جميعًا أن نرى أن ناشرى الكتب ورؤساء التحرير كثيرا ما ينشرون لمشاهير الكُتاب ما لا يمكن بأى حال من الأحوال أن يقبلوه من المغمورين، وأن القراء كان لابد أن يزوَروا بوجوههم فى سخرية واستياء عن سخافات وترّهات لولا أن كُتابها ذائعو الصيت، فاضطروا اضطرارًا إلى محاولة استشفاف ما لعلّه كامن فيها من أفكار عميقة هى فى الحقيقة خالية منها..

غير أن المرء لابد أن يلتمس العذر هنا للقارئ كما التمسناه فى البداية للناشر ورئيس التحرير. ذلك أنه من الطبيعى، فى كل مجالات الحياة، أن يطلب الفرد لنفسه من السلع والخدمات ما ثبتت على مرّ الأيام صلاحيته ورسخت فى الأذهان أحقيته وسمعته، سواء كانت هذه السلعة أو الخدمة صنفًا من السمن البلدى، أو علامة تجارية لرباط عنق، أو نجمًا سينمائيًا، أو مؤلفًا روائيًا.. فهو إن دخل مكتبة لشراء رواية ورأى على رفوفها المئات من الروايات، لا غرو سيكون أكثر اطمئنانا وأقل إحساسا بالإقبال على المخاطرة بنقوده لو أنه انتقى رواية لنجيب محفوظ، أو

تشارلس ديكنز، تمامًا كما أن ربة البيت إن هى دخلت إلى السوبر ماركت لشراء صابون وجه، كان الأغلب أن تمتد يدها إلى صابون بالموليف مثلا دون نوع من الصابون لم تسمع عنه. فصابون بالموليف، أو معجون جيليت للحلاقة، قد ذاع صيته وثبتت شهرته بفضل أمرين: زمان طويل من الممارسة والخبرة فى الميدان، وإنتاج تمتع برضا حشد كبير من الزبائن . ومن منا بوسعه أن ينكر أن تقديره للوحة فنية معينة لا يعرف اسم راسمها سيطرأ عليه تغير حاسم لو أنه علم فيما بعد أنها لسيزان أو فان جوخ؟ وقد يعرف البعض أن بيكاسو كان يأبى التوقيع على لوحاته قبل خروجها من مرسمه حتى لا يطمع اللصوص فى اقتحامه لسرقتها، لعلمهم أن قيمتها بعد التوقيع هى أضعاف أضعاف قيمتها قبله.. ولا بأس من أن أورد هنا ما يُحكى عن أن ليوتولستوى، بعد كتابته لقصة قصيرة، بعث بها إلى رئيس تحرير إحدى الصحف مع رسالة يقول له فيها أن البستانى الذى يعمل عنده يسلى نفسه أحيانا بكتابه القصص، بينها تلك القصة المرفقة، فردها رئيس التحرير معتذرًا بقوله إن بستانيه – للأسف – خال من الموهبة!..

قد نسخر نحن الآن من هذا الرد من رئيس التحرير. غير أنه مما يدفعنا إلى التخفيف من حكمنا القاسى عليه علمنا بأن حكم الإنسان على العمل الفنى هو فى العادة عسير بطئ..

ما يزيد الأمر تعقيدا بالنسبة للناشرين ورؤساء التحرير هو استسهال الشباب للكتابة.. فالجندى مثلا فى حاجة إلى التدريب لعدة أشهر أو لعدة سنوات قبل أن يتقن مهنته. وصانع الأحذية أو صانع الساعات فى حاجة إلى استكمال عدد من الأدوات والآلات والمواد الخام بالإضافة إلى

التدريب الطويل قبل أن يمارس حرفته.. أما عند الآنسات أو المراهقين الراغبين فى كتابة رواية أو قرض شعر، ففى القلم وبعض الورق ما يكفيهم (ومن ذا الذى لا يملك قلمًا وورقًا؟) ثم بعض الثقة بأنفسهم والإيمان بموهبتهم، وهو إيمان قد لا يشاركهم فيه أحد. وها هم يمارسون نشاطهم الأدبى فى أى وقت يحلو لهم، نهارًا كان أو ليلاً أو فجرًا، مرتدين الحلة أو البيجاما، فى المقهى أو النادى أو البيت، لنصف ساعة فى اليوم أو عشر ساعات، يحلمون باليوم الذى يذيع صيتهم فيه، ويمطرهم القراء برسائل الإعجاب، ويتزاحم الناشرون عليهم للتعاقد معهم، ويظهرون على شاشة التليفزيون للإدلاء بآرائهم فى الحب والسياسة.. ثم تكون نتيجة هذه الأحلام أن يُمطر الناشرون والمحررون بالكتب والقصائد والمقالات والروايات، فإن لم تُنشر اتهمهم المراهقون والآنسات بإهدار المواهب، والعجز عن التقييم السليم، وتحجر المفاهيم، والتعصب ضد الشباب، وتفضيل المشاهير المسنين ممن قد انقضى أوانهم..

على الشباب أن يفهم جيدا أن الكتابة نشاط يحتاج كشأن معظم الأنشطة الأخرى إلى سنوات طويلة من الإعداد والتدريب الشاقين، وأن يعى جيدًا أن واحدًا فى المائة، او واحدًا فى الألف، ممن يختارها منهم لنفسه قد يُكتب له النجاح، بينما يُكتب على الباقين الفشل.. لذلك نجد الكثيرين من مشاهير الكُتاب ينصحون الشبان الذين يتقدمون إليهم بطلب الرأى والمشورة، بأن يلتمسوا لأنفسهم ميدانًا آخر غير التأليف، أو أن يكسبوا رزقهم عن طريق مضمون العاقبة.. وهم فى نُصحهم هذا – وإن آلم الشاب – مدفوعون بدافع الإشفاق، وبذكرى ما خبروه هم فى بداية حياتهم وخبره حشد من أقرانهم من فشل وإحباط ومعاناة لا حدّ لها.

هى إذن قسوة فى باطنها الرحمة. ولكن.. من ذا عساه من الناشرين ورؤساء التحرير أو مشاهير الكُتاب الذين يدلون بمثل هذا النُّصح يمكنه أن يثق فى أنه بنصحه هذا، أو برفضه النشر لهذا الشاب المبتدئ أو ذاك، لن يكون السبب فى إيصاد الباب فى وجه بديع زمانه، أو ميخائيل نعيمة جديد، ولن يتسبب فى توجيه من كان بوسعه أن يتألق تألق جبران أو بيرم التونسى إلى الالتحاق بالسلك الدبلوماسى أو العمل ببورصة الأوراق المالية؟ وهل يمكن لهم أولنا أن ننسى كيف أن مارسيل بروست مؤلف أعظم رواية فى القرن العشرين (بحثا عن الزمن الضائع)، حين تقدم فى تردد واستحياء بالمجلد الأول من روايته إلى دار نشر «الرواية الفرنسية الجديدة»، رفضها فى غلظة واستعلاء أحد مديريها، وهو أندريه جيد، الذى عاد بعد أكثر من عشر سنوات يعلن على الملأ أن رفضه نشر رواية بروست كان أكبر غلطة وأعظم حماقة ارتكبها فى حياته؟!..

أىُّ خَلَل هذا فى القيم؟

امرأة إنجليزية تلقى مصرعها فى حادث سيارة بباريس.. ما الذى يسوّغ أن يصبح موتها حديث شعوب العالم وصحافته؟.. لاعب بيزبول أمريكى زنجى يقتل مطلقته وعشيقها.. ما الذى يدفع الناس إلى متابعة محاكمته لمدة سنة باهتمام جم؟.. ممثل سينمائى مصرى ظهر فى عدة أفلام أجنبية تسرى إشاعة عن زواجه بمطلقة موسيقى مصرى.. أى شىء فى هذا يبرر أن يصبح محور مناقشة الناس فى مجالسهم؟..

أى اختلال هذا فى القيم؟ ومن المسئول عنه؟..

زواج فتاة إنجليزية من ولى العهد فى بريطانيا هو عندى فى مثل وزن زواج بائعة فجل فى مصر ببائع بطيخ.. أية حماقة تلك - بل أية جريمة - دفعتهم إلى إقامة مثل ذلك الاحتفال الرهيب بالزفاف، وإنفاق الملايين عليه، وإذاعة طقوسه فى جميع أنحاء العالم؟ أما كان ذلك الاحتفال نفسه فى حقيقة الأمر أول خطوة فى الطريق إلى الهاوية؟..

أكانت الصحف وكان مصوروها المسؤولين عن مصرعها؟ الصحف - فى سبيل الكسب - تحاول إشباع احتياجات الجماهير، والاستجابة لطالبتها بنفى الملل عنها. وهى تدفع المبالغ الباهظة للمصورين مقابل صور للأميرة اللاهية لا لسبب غير أن الجمهور يريد أن يتفرج على تلك الصور. ولو كان الجمهور غير عابئ بأخبار الأميرة وصورها ما ألقت الصحف إليها بالا ولا فكر مصور فى تصويرها ولو وقفت أمامه عارية..

هذا حق. غير أنه حق أيضا أن وسائل الإعلام تسعى دائمًا إلى خلق احتياجات زائفة لدى الجمهور من أجل رواج صحفها وإذاعتها وبرامجها

التليفزيونية.. احتياجات ما كانت الجماهير لتشعر بها لـولا هـذا السـعى الدائب المتعمد من جانب وسائل الإعلام حتى يهتم الخلق بمـا لم يكونـوا يرونه خليقًا بالاهتمام.. إذ ما الذى عساه – بالله عليكم – أن يهمنى مـن أمر زنجى قتل مطلقته على بعد آلاف الأميـال مـن موطنـى؟ لأنـه لاعـب بيزبول؟ وما دخل جريمة القتل فى رياضة البيزبول؟ ما دخـل أدوار عمـر الشريف السينمائية فى زيجاته أو شغفه بالبريدج؟ لماذا شغل مصرع امرأة إنجليزية وعشيقها من اهتمامات الناس أضعاف ما شـغلته قوانـين تصـدر لخدمة أصحاب الثراء ؟ ..

اهتمامات الناس مثل ذاكرتهم، لهـا سـعة معينـة وحـدود معينـة . إن اهتممت بأمر فعلى حساب أمر آخر. والمسألة مسـألة أولويـات. إن شـغل ذهنك مصرع امرأة إنجليزيـة فـى نفـق مـن أنفـاق بـاريس فعلـى حسـاب انشغالك بأمر الفساد وتفكيرك فى طرق التصدى له. هذا عـلاوة علـى أنـه يزيدك تفاهة، تفاهة تبرر شيوع الفساد الذى يعيش فيه أمثالك..

أقول إن المسئولية فى النهاية تقع على عاتق أجهزة الإعلام، الداخلية والخارجية، والخارجية أكثر من الداخلية . إذ كم مـن الجرائـم ارتكبتـها وترتكبها محطة سى. إن. إن. مثلا فى هذا المضمار، فى مضمـار اختـلال قيمنا وزيف اهتماماتنا؟..

يردون بأن العالم قد أضحى قرية كونيّة ، ولا مفر من أن تهتم بمصرع أميرة بريطانية اهتمامك بمصرع فدائى فلسطينى أو فلاح مصرى..ألا ليـت هذا صحيح، وكان اهتمام رجل الشـارع الأمريكـى أو الإنجلـيزى بمصـرع الفـلاح المصرى والشـهيد الفلسـطينى كاهتمامـه بمصـرع ديانـا ! أو ليتنـا ما عشنا حتى شهدنا القرية الكونية وبقينا شأننا فى زمـن المقريـزى حـين كان الخبر لا يصل إلى القاهرة من الأقاليم إلا بعد شـهر أو أشـهر، بشـرط

أن يكون الخبر هامًا، وما كان يصلها أصلا خبر كخبر مصرع امرأة إنجليزية مطلقة مع عشيقها وهما فى الطريق إلى شقة الثانى فى باريس لقضاء ليلتهما فيها..

وهو ما يقودنى إلى نقطة ثانية:

الجميع بما فى ذلك زعماء العالم ينعون الفقيدة ويرسلون برقيات العزاء إلى مطلقها ووالدة مطلقها، ويسردون كريم صفاتها، ويتغنون بحميد أخلاقها وبإنسانيتها وقلبها الكبير وتعاطفها مع ضحايا الألغام ومرضى الإيدز، وينعتونها بأنها امرأة نموذجية تحتذى.. الجميع فعل ذلك، بما فى ذلك الملك حسين والرئيس شيراك والأمير سيهانوك ورئيس الوزارة تونى بلير وزعماء الدول الأفريقية والآسيوية والأمريكية والأوروبية، بل وقداسة البابا فى روما نفسه...

أريد أن أسأل هؤلاء، خاصة البابا ، هل فكرتم لحظة فى عواقب مثل هذا التأبين السخى، وهذا المديح القوى، لامرأة تعرف الشعوب كافة - بل واعترفت هى بنفسها على الملأ - أنها كانت تخون زوجها فى ظل الرابطة الزوجية، وأنها ظلت تتنقل بعد انفصام تلك الرابطة من عشيق إلى عشيق إلى عشيق؟ ما عساه أن يكون تأثير تلك المباركة الاجماعية لمثل هذه المرأة فى فكر وأخلاقيات وسلوك النساء والفتيات؟ هل فكر رأس الكنيسة وفكّر هؤلاء فيما يمكن أن يراود النساء والفتيات من مشاعر التخبط ومن الحيرة والبلبلة إذ يلمسن الدليل الناصع القاطع على أن السلوك الجنسى الذى كن قبل مصرع ديانا يعتبرنه فاضحا، لا يمنع من أن تكون صاحبته عظيمة لا كسائر النساء، وقدوة ينبغى على بنات جنسها أن يحتذينها؟..

أجيبونى لافض اللهَ أفواهَكم: أى خلل هذا الذى أصابنا حتى انتهينا إلى ما انتهينا إليه؟..

خواطر وانطباعات من واشنجطون

- ١ -

(١)

حين قرّر الحكام في أوروبا مع بداية الثورة الصناعية أن يسمحوا للعمّال بتعلّم القراءة والكتابة باعتبارهما مفيدتين في تشغيل الآلة، اعترض المحافظون على هذه التجربة الخطرة التي قد تدفع العمال - متى انغمسوا في القراءة، وأحاطوا بأكثر مما ينبغي لهم أن يحيطوا به من حقائق الأمور - إلى التفكير في الإطاحة بساداتهم.. غير أن النصر كان حليف التقدّميين من أمثال جون ستيوارت ميل. وكانت النتيجة (كما توقّع المحافظون) أن نجحت معظم الشعوب الأوروبية في التخلص من أنظمة الحكم الغاشمة، أو انتزع العمال حقوقهم انتزاعًا من أيدي أصحاب رءوس الأموال.. بل إن الفرنسيين الأكثر ولعًا بالقراءة والنظريات والتجارب السياسية من غيرهم، شهدوا خلال قرنين من الزمان حكومة الإدارة، وحكومة القنصل بونابرت، وإمبراطوريّتين، وثلاثة ملوك، وخمس جمهوريات!

هذا هو ما يحدث حين يأخذ الناس القراءة والكتابة على محمل الجدّ.. أما الأمريكيون فما كانوا في يوم من الأيام شديدي الولع بالقراءة، ولا كان لديهم وقت لها وهم في معمعة البيع والشراء، والإنتاج والاستهلاك. ولذا فإن دولتهم اليوم تكاد تكون الدولة الوحيدة التي لم يعرف تاريخها انقلابًا واحدًا ضد نظام الحكم.

وهم فى زمننا هذا قد ساد بينهم الاعتقاد بأن كافة صنوف المعرفة يمكن نقلها وبثّها بطرق غير طريق القراءة الذى أضحى «موضة قديمة»، بل ويتساءل لسانُ حالهم عن جدوى كتابة أىّ شىء عدا طريقة تشغيل آلة، أو فتح علبة، أو شرح لعبة، وما يحوى هذا الطعام المُشترى أو ذاك من سُعْرات حرارية!

البعض لا يزال يقرأ: الجرائد اليومية فى القطارات أثناء عودتهم فى المساء من عملهم، والمجلات الأسبوعية إن لم يجدوا فى البرامج التليفزيونية العديدة ما يريدون مشاهدته، بل والكتب إن كان الجو فى عطلة نهاية الأسبوع لا يسمح بنزهة أو ممارسة رياضة. غير أن معظم هؤلاء الأخيرين يقرأ كتبًا رديئة غثّة، لا لأن هذه الأقلية التى هى فى انحسار مستمر تعشق الكتب الرديئة، وإنما لأن الكتب الجيدة - ماضيها وحاضرها - لم تعد تجذبهم أو تثير اهتمامهم، أو توفّر التسلية لإنسان أرهقه العمل فى المكتب أو المصنع أو المتجر. وإذ باتت التسلية هدف القارئ، فقد باتت أيضا، وبالضرورة، هدف الكاتب. ولا تنافس كتب التسلية هنا فى الرّواج غير الكتب الدينية التى يكتب معظمها متاجرون بالدين، وتحوى «اعترافاتهم» وتجاربهم فى البحث عن الحق، وتوصّلهم فى النهاية إلى الطريق إلى اللّه، بعد سنوات من تعاطى المخدرات أو الخمور، والانغماس فى العنف أو الفجور، وبعد إشراف على الانهيار، وتفكير فى الانتحار.. مثل هذه الكتب تباع للأصوليين المسيحيين فى مئات المكتبات، وتبلغ قيمة المباع منها فى السنة الواحدة أكثر من ستمائة مليون دولار.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

(٢)

وقد كانت إحدى نتائج كل ذلك أن باتت للجامعات الهيمنة شبه الكاملة في مجال الفكر الجاد، دون أن يتمكّن رجالها ونساؤها من إنتاج فكر حقيقي ذي قيمة، رغم اعتقادهم أن كشف الحقيقة قاصر عليهم، وأنهم بإعادة ترتيب الحقائق المعروفة، وبحواشيهم الطويلة، وفهارسهم المصنّفة، قد أتاحوا للقارئ فرصة العثور عليها! فهم بصفة رئيسية أناس مشغولون بجمع الحقائق الصغيرة من أجل خدمة مستقبلهم في السّلّم المهني، كل نقطة من نقاط بحثهم يرونها جديرة بنفس القدر من العناية والتفصيل، لا يفرّقون بين الحيوي الهام وبين تافه القدر، ويتلاعبون كالبهلوانات بالكلمات حتى يُثبتوا شيئا لا قيمة له، أو أمرًا لا يمكن إثباته.. ثم ما من غرض لهذا كله غير إضافة بحث جديد إلى قائمة بحوثهم فتساعدهم على نيل ترقية، أو أن ينوّه باحثون آخرون ببحثهم في كتبهم، ويوردوه في ثبت مصادر تلك الكتب، أو أن يقع الاختيار عليهم أعضاء في اللجنة المانحة لجوائز بوليتزر، فيعطون الجائزة لصديق قد ينضم فيما بعد إلى تلك اللجنة، فيقرّر ردّ الجميل ومنحهم هم بدورهم تلك الجائزة!

إنني حين أرقب هؤلاء الأساتذة الجامعيين الأمريكيين يستعينون في كتابة بحوثهم وكتبهم بالعشرات من الطلبة والمعاونين، وبأجهزة الكومبيوتر المذهلة، ينتابني إحساس من الإشفاق على والدي حين أتذكر أسلوبه في تأليف «فجر الإسلام وضحاه وظهره»، وتنقيبه المنفرد المضني في المصادر، وتقليبه في المراجع، دون عون من طلبة في كلية الآداب أو من كومبيوتر. غير أني أعود فأقارن بين إنتاج أبي وكتاب جيله وبين

إنتاج هؤلاء الأساتذة الذين أتحدث عنهم، أو بين مؤلفات المستشرقين القدامى من أمثال هاميلتون جيب وبين بحوث «المتخصصين» الأمريكيين اليوم في الدراسات العربية أو الإسلامية، فيختفي على الفور ذلك الإحساسُ بالإشفاق.. وإذ ألمس رداءة أسلوب هؤلاء الأخيرين في الكتابة، وافتقارهم إلى أدنى قدر من الموهبة الأدبية، أتذكّر كيف كان المؤرخون والاقتصاديون وعلماء الفلك والطبيعة وغيرهم في الماضي، من أمثال جاليليو وجيبون وآدم سميث وبيرك وهيوم وماكولي وكارلايل ولوك، أدباء لا نزال نقرأ مؤلفاتهم لروعة أسلوبها، كما نقرؤها للاستفادة من مضمونها.

(٣)

مصاريف الدراسة في الجامعات الأمريكية هي من الباهظة بحيث لا يكاد يُتاح لغير أبناء الموسرين الالتحاق بها. أما الأمريكي العادى فإنه لمن الصعب على الأجنبي المثقف أن يدخل معه في حديث جاد حول أى موضوع تقريبًا، عدا المباريات الرياضية. فمعلوماتهم هى في العادة نزرة ضحلة، خاصة عن العالم الخارجي. (أدخل مكتبة في واشنجطون فأسأل موظفة بها عما إذا كان لديهم قسم للكتب الخاصة بالشرق الأوسط، فتجيبني في حيرة: «الشرق الأوسط؟ وما الشرق الأوسط هذا؟ عندنا قسم للكتب عن الغرب الأوسط»، تعني الغرب الأوسط في الولايات المتحدة. وقد ذكر المؤرخ البريطاني الشهير إيريك هو بسباوم في مقدمة كتابه الأخير «عصر التطرف» أنه أثناء إلقائه محاضرة في إحدى الجامعات الأمريكية، ورد على لسانه ذكر الحرب العالمية الثانية، فانبرى أحد الطلبة النجباء يسأله: «تقول الحرب العالمية الثانية. هل نفهم من هذا أنه قد كانت هناك حرب عالمية أولى؟»!

فإن كان كونفوشيوس يقول: «كيف يمكن أن يفهم الدنيا من لا يفهم نفسه»، فإن لنا أيضا أن نتساءل: «كيف يمكن أن يحكم العالم من لا يعرفه ولا يفهمه؟».. التاريخ لا يعبئون به، (من إحصاء أجرى فى نوفمبر عام ١٩٩٤ تبيّن أن أثقل مادة على نفوس الطلبة الأمريكيين من بين خمسين مادة تدرّس فى المدارس والجامعات هى مادة التاريخ)؛ والجغرافيا لم تعد تدرّس فى معظم المدارس الحكومية، والأدب يخجل الأمريكي المؤمن بأهمية العلم أن يعترف بأنه مغرم به، فى حين قد يجلب له الشغف بقراءة الشعر شُبهة الشذوذ الجنسى. أما تعلّم اللغات الأجنبية فلا يأتيه منه غير الصداع، ثم ما الداعى إليه مادامت الدنيا بأسرها قد باتت تعرف الإنجليزية؟ وأما السياسة فأمرها لديهم سهل، وبالوسع تلخيصها فى جملة واحدة: إما «نحن»، أعظم دولة فى العالم، بل فى التاريخ كله، وإما «هم»، أى الأجانب الذين يتحرّقون شوقا إلى الهجرة إلى الولايات المتحدة، ويحسدون الأمريكيين على وفرة المعروض عليهم فى السوق من أصناف الجبن أو السردين أو صابون الغسيل، وعلى الحرية المكفولة لهم أثناء الانتخابات فى الانتقاء بين مرشحى حزبين لا اختلاف بينهما، ويكاد الشبه بينهما لا يزيد عن الشبه بين حبّتين من البازلاء، حتى بات يقال إن الحزبين الحقيقيين فى الولايات المتحدة هما حزب الذين يدلون فى الانتخابات بأصواتهم لصالح المرشحين الديموقراطيين أو الجمهوريين، وحزب الذين يفهمون حقيقة الأمور فيحجمون عن الاشتراك فى التصويت؛ وهما حزبان يكادان أن يكونا متكافِئَ العدد!

(٤)

قبل العقد السابع من هذا القرن لم تكن الجماهير العريضة في الولايات المتحدة لتعرف أسماء أكثر من حفنة صغيرة (ستة أو سبعة) من المؤلفين الأمريكيين المعاصرين، تمامًا كما كان الحال في مصر قبل ثورة عام ١٩٥٢.. أما اليوم فقد باتت الشهرة تأتى الكاتب أحيانًا بين ليلة وضحاها، وغدا العشرات من الروائيين والشعراء والنقاد معروفين لدى الملايين، لا بفضل إقبال مفاجئ من الناس على القراءة، (فإحصاءات دكتور جالوب تشير إلى أن خمسين في المائة من الأمريكيين لم يقرءوا كتابًا واحدًا بعد انتهاء سنى دراستهم في المدرسة أو الجامعة)، وإنما بفضل ذلك الجهاز المهيمن على الحياة الأمريكية، ألا وهو التليفزيون الذى لا ينقطع إرساله اليومى طوال أربع وعشرين ساعة، والذى يحتاج دوام إرساله إلى ملء الفراغات الزمنية، خاصة بالأحاديث التى من شأنها تحقيق نوع من التوازن مع البرامج الترفيهية.

وقد تبيّن عند السعى لملء الفراغات بالأحاديث أن الأدباء هم أقدر عليها من غيرهم (من السياسيين مثلاً وهم الحريصون على عدم التورّط فى إدلائهم بالتصريحات، أو الممثلين والممثلات ونجوم الغناء والرقص والرياضة ممن يفتقر معظمهم إلى الفكر والثقافة)، ومن أكثر الطوائف ترحيبًا بالظهور فى التليفزيون وأوسعهم وقتا له. وقد كان مُذ بدأ التليفزيون يستضيفهم، أن نال هؤلاء الكتّاب من الشهرة ما لم ينالوه من قبل، وأن نال صغارهم منها ما لم ينله أكابر المؤلفين وأعمقهم وأعظمهم موهبة فى عصر ما قبل التليفزيون.

وقد خلق هذا الوضع الجديد مشكلة وحيرة لدى هؤلاء الأدباء أنفسهم ولدى المعجبين بهم من القراء ممن يرون من قبيل الإزراء بالأديب الكبير أن يسمح بتعريض نفسه لأسئلة تافهة يوجّهها إليه مذيع «هايف»، حتى تتفرج عليه الملايين ممن لا فكرة لديهم عنه سوى أنه «من أولئك الذين يكتبون الكتب».. والغالب أن يردّ الأديب الكبير على هذا بقوله إن ظهوره أمام الملايين على شاشة التليفزيون من شأنه أن يزيد من توزيع مؤلفاته، أو يخدم تجارة الكتب، أو يساهم في تثقيف عامة الناس.. غير أن المؤكد أنه ليس ثمة دليل حتى الآن على أن ظهور الأدباء في التليفزيون أدّى إلى زيادة المبيعات من الروايات أو دواوين الشعر. فمعظم من يتفرجون على التليفزيون أناس لا يقرءون أصلاً، بل وقد لا يصلحون أصلاً للقيام بأي شيء آخر! غير أن هذه الحقيقة لا تثبط من همّة الأدباء الذين يؤمنون بأنهم متى ظهروا مرارًا في التليفزيون، ومتى أحسنوا الحديث في كل مرة يظهرون فيها، فقد يكتسبون شعبية تعادل أو تقارب شعبية لاعبي الكرة أو الممثلين والمغنين والراقصين، فيقبل الناس على شراء كتبهم الجديدة، (في حالة توفر الوقت لديهم بعد الظهور في التليفزيون لتأليف كتب جديدة!).

غير أنه حتى لو أن الكاتب الذي يحسن الحديث ظل يحسن الكتابة، فإن ثمة من يعتقد أن الشهرة مفسدة له. والأمريكيون بصفة عامة، وفي قرارة أنفسهم، يفضّلون لو ظل أدباؤهم الجادّون مغمورين، وحبذا لو كانوا فقراء، بل وحبّذا أيضا لو أنهم يعانون من إدمان الخمر أو المخدرات. (كتب الروائي الأمريكي اليساري أبتون سينكلير الذي عاش إلى ما بعد التسعين يقول: إن معظم من عرفهم من الكتاب الأمريكيين

توفى بسبب الإفراط فى تعاطى الخمر). فالفكرة الأمريكيـة التقليديـة عـن الأديب أنه إنسان غريب فى وطنه وفى أهله، قد اختار اعتزال العالم إلى حجرة مكتبه حتى يتسنّى له أن يكتب «فى هدوء».. غير أن هذا الوضع تغيّر تغيّرًا جذريًّا منذ بداية الستينيات، ومنذ انتخاب جون كينيدى على وجه التحديد.. ذلك أنه بالرغم من أن ذلك الرئيس الشاب لم يكن واسـع الثقافة (كان الأديب الأثير عنده هو إيان فليمنـج مؤلـف روايـات جيمـس بوند)، فقد كان يبدو كالمثقف، وكان بوسعه أن يمـيز بـين كتابـات سـول بيلو وكتابات إيروين شو.. غير أن الأهم من ذلك أنه كـان يـدرك حاجـة إدارته إلى تعضيد الكتّاب ومساندة مشاهيرهم لسياساته الجريئة. لذلك فقد سعى إلى التقرّب إليهم، والتودّد خاصة إلى مـن اكتسـبوا الشـعبية واسـعة النطاق من خلال أحاديثهم التليفزيونية.

تحمّـس الكثـيرون مـن الكتـاب الأمريكيـين لكينيـدى حتـى مـن قبـل انتخابه، وأسهموا إسهاما إيجابيا فـى حملتـه الانتخابيـة، وصـاروا فـى عهد رئاسته يتلقّون الدعوات الكثيرة إلى مآدب البيت الأبيـض.. ثـم كـان أن أحس الأدباء بارتقاء مكانتهم عند رجال السياسة، وبدأ تطلّعهم إلى أن يكون لهم دور مؤثر فيـها، وفـى تكييـف الـرأى العـام وتوجيهـه، ونشـر أفكارهم عن حياة أفضل. فالكاتب الذى يجيـد الحديـث فـى التليفزيـون بوسـعه أن يخلّـف فـى نفـوس المستمعين تأثـيرًا أعمـق مـن تأثـير معظـم السياسيين: فهو ليس بذائع الصيت فحسب، وإنما هو أيضًـا حـرّ الفكـر والمعتقدات، لا يعمل لحساب أحد، ولا يطمـح إلى ضمـان انتخابـه لفـترة ثانية، ولا يتحدث فى العادة إلا بوحى من ضميره.

وثمة فضل آخر على الأدب الأمريكى نجـم عـن ذيـوع الصيـت الـذى هيـأه التليفزيـون للأدبـاء. ذلـك أن اخـتراع التليفزيـون وتعـاظم انتشـــاره

وشعبيته أحدثا أزمة حادة وضائقة كبيرة لدى المجلات الشهرية والفصلية التى تأثر حجم توزيعها من جرّاء هذا الاختراع، حتى أشرفت على الإفلاس. وقد قضى رؤساء التحرير الجدد لهذه المجلات (ومعظمهم من الشباب) زمنا يقدحون فيه زناد فكرهم من أجل الاهتداء إلى أفضل السبل لإبقاء مجلاتهم على قيد الحياة وإنقاذ الموقف. وكان أن تفتّقت قرائحهم عن فكرة الاستغناء عن الكتّاب السطحيين الذين اعتادوا أن يملئوا الصفحات بقصص فكاهية أو غرامية أو قصص المغامرات التى لا ترضى غير ربات البيوت والتى كانت دائما مثار احتقار المثقفين، واستكتاب كبار الأدباء الذين حقق لهم ظهورهم المتكرر فى التليفزيون شهرة كبيرة.. وكانت النتيجة أن ارتقى مستوى هذه المجلات الشهرية والفصلية، وأن زاد إقبال الشباب من المثقفين الأمريكيين على شرائها، فزاد اطمئنان ناشريها إلى صواب فكرتهم، خاصة أن سن السابعة والعشرين هو متوسط سن أكثر الأمريكيين إقبالا على الاستهلاك وعلى القراءة معا.

□□□

يقول جوته:

«تنمو الموهبة مع الهدوء والسكون، وتنمو الشخصية بخوض معترك الحياة».

غير أن الواقع أن خوض معترك الحياة، والاتصال عن قرب بالعالم الخارجى، لا يعنيان بالضرورة إفساد شخصية الأديب أو إفساد أدبه وفقدانه موهبته وترهّله الفكرى، حتى إن اعترفنا بأنهما يضيعان الكثير من وقته ويفقدانه بعض الهدوء اللازم للإنتاج. ذلك أنه متى كانت

تجارب الأديب محدودة بسبب انعزاله عن العالم الخارجي، مال في أدبه إلى الاقتصار على وصف عالمه الشخصي والداخلي، فيضحي كالمعدة تتغذّى على نفسها حتى تصيبها القرحة. أما وقد بدأ الأدباء الأمريكيون في الثلث الأخير من هذا القرن يميلون إلى خوض معمعة الحياة، ويبدون اهتمامًا ملحوظًا بالمسائل السياسية والاجتماعية والاقتصادية الكبرى، ويستوعبون حقائق العالم خارج حدود بلادهم، فلا شك في أنهم سيستوعبون من خلال كل ذلك من الحقائق الجديدة واسعة النطاق ما من شأنه أن يُضفي أبعادًا جديدة على مؤلفاتهم.

خواطر وانطباعات من واشنجطون

- ٢ -

(١)

ما من يوم يمرّ عليّ هنا فى الولايات المتحدة إلا قفزت فيـه إلى ذهنـى قولة معاوية: «لا تُنال نعمة إلا بفقدان أخرى»..

رخاء وسعة فى العيش؟ إشباع شبه كـامل للاحتياجـات الماديـة لـدى غالبية أفراد الشعب؟ تقدم مذهل فى العلم والتكنولوجيا؟ سـهولة الحيـاة وخلوها من المكدرات البيروقراطية؟ حرية فردية فى السلوك والتعبير عـن الذات تكاد أن تكون مطلقة؟ نعم.. ولكنى أجدنى إزاء كل هذه الإنجازات غير قادر على قبول فكرة أن يكون هذا هو هدف الحياة البشرية، أو المثل الأعلى..

ومع ذلك، فثمة سر لا محالة فى هذا النمط من الحياة جعـل مختلـف الشعوب خارج الولايات المتحدة تنظر إلى هذا النمط باعتباره المثل الأعلى، ليس فقط فى دول نامية كمصر التـى قـد يـرى البعـض فيـها فـى افتتـاح مطعمين أو ثلاثة لسندوتشات مكدونالد بوادر حـل قريـب حاسـم لمشـاكل البلد الاقتصادية والاجتماعية (وربما السياسية أيضـا!)، وإنمـا أيضـا فـى دول هى فى رأيى أرقى حضاريًّا من الولايات المتحدة، مثل ألمانيا وفرنسا وبريطانيا.. نعم هو إنجاز ضخم أن تصل الطبقـة المتوسـطة العريضـة فـى الولايات المتحدة إلى مثل هذا النعيم المادى. ولكن هذه الطبقة تكاد تتمتـع فى الدول الأوروبية الكبرى بمثل هذا النعيم دون أن تعطى الانطباع الذى

تعطيه الولايات المتحدة من أن كسب المال هو الغرض الأعلى، وأن وسائل كسب هذا المال هى كل ما ينبغى للمواطنين أن ينشدوه.. قد تكون هذه النظرة مسئولة إلى حد كبير عن توفير هذا المستوى الرفيع من العيش. ولكن كيف يمكن أن يكون صاحبها مثلا أعلى، أو يكون هدفه هدفًا للحياة البشرية؟..

ثمة بطبيعة الحال اهتمام من جانب السلطات بالفنون والعلوم.. يكفى أن تتأمل المتاحف العظيمة المختلفة على جانبى الطريق الطويل بين نصب لينكولن التذكارى ومبنى الكابيتول فى واشنجطون كى تدرك هذا.. غير أنه يكفى أيضا أن تشير إلى ما ذكرته عن عزوف غالبية الأمريكيين عن القراءة، وضعف اهتمامهم بما يجرى خارج الولايات المتحدة، والتغطية الهزيلة للشئون الخارجية سواء فى نشرات أخبار الإذاعة والتليفزيون، أو فى الصحف، حتى المحترمة منها مثل صحيفة «واشنجطون بوست»، أو إلى أن عدد المكتبات فى الولايات المتحدة عام ١٩٩٦ لم يزد عما كان عليه فى القرن التاسع عشر، أو أن تستمع إلى الشكوى المتكررة من تدنى مستوى التعليم فى المدارس الحكومية الأمريكية لدرجة أن نصف عدد الملتحقين الجدد بالجامعات لم يتمكنوا من الإشارة إلى موقع الولايات المتحدة فى خريطة للعالم خالية من أسماء الدول!..

قد يكون حال الأمم كحال الأفراد: إن نبغوا فى ميدان من الميادين فقد ينجم عن نبوغهم هذا ضمور فى المواهب الأخرى، أو قد يكون هذا النبوغ نفسه ناجمًا عن ضمور فى المواهب الأخرى.. ولازلت أذكر حديثًا لى مع كريستوفر ديكى مراسل مجلة «نيوزويك» فى الشرق الأوسط فى أغسطس عام ١٩٩٤، إذ يقول لى إنه يعتقد أن السبب الرئيسى فى تخلف

المصريين (والعرب عامة) هو قوة ارتباطهم بعائلاتهم وبأعمالهم وبموطنهم، مما يشل من قدرتهم على الحركة، عكس الأمريكى الذى هو دومًا على استعداد للحركة والتنقل، ولهجر موطنه وعمله وعائلته إلى موقع آخر أكثر مناسبة لقدراته.. ثم ذكر لى كيف أنه أثناء تغطيته لأنباء زلزال كبير فى إيران، سأل أحد الإيرانيين فى منطقة الزلزال عن عدد من فقده من أقاربه فيه، فأجاب بقوله: مائة وعشرين! وأضاف المراسل إنه يتحدى أى أمريكى أن يذكر له أسماء ستة أو سبعة من أفراد أسرته!..

أجل هو شعب يمكن أن يصفه الكثيرون بأنه شعب سعيد. أمُرُّ بالناس فى الشوارع فيبتسمون لى ابتسامة عريضة «دون مناسبة».. أركب الأوتوبيس فيحيينى السائق تحية الصباح سائلاً إياى عن حالى، ويتمنى لى يومًا سعيدًا عند نزولى.. حديثهم إلىّ وإلى بعضهم بعضًا ملىء بالمزاح أغلبه ضاحك.. أزور حديقة الحيوان فأشاهد فتاة تعمل بها وقد التف حول جسدها ثعبان طويل مخيف يتلوى تعرضه على زوار الحديقة، حتى إذا حانت منها التفاتة إلىّ قصدت مكانى لتحدثنى فى براءة وحرية و«دون تكليف» عن تاريخ غرامها بالثعابين، وعن أنواعها السامة وغير السامة، وعن عاداتها وما تطعمها إياه، ثم تقدم إلىّ رأس الثعبان كى أربت عليه.. أطل من نافذة حجرتى فيلمحنى رجل عجوز فى الشارع فيصيح بى: لماذا لا تنزل إلى الطريق لتنعم بدفء الشمس وبالهواء النقى.. أدخل مكتبة للكتب القديمة فيقدم لى صاحبها أثناء تفرجى على الكتب فنجان قهوة وطبقا من البسكوت، فإن وقع اختيارى على كتاب عن لينكولن أرانى كل ما فى مكتبته من كتب عن لينكولن، مادحًا بعضها وقادحًا فى البعض..

(٢)

شعب هو في مجموعه ودودٌ، ودودٌ، ودود.. ولكن.. ماذا عما يعانيه الملايين من الأمريكيين من داء البارانويا، وتكرر توهمهم أن عدوا غامضًا يتربص لهم ويريد إلحاق الأذى بهم، آخذًا سمت اليهودى تارة، وتارة سمت الشيوعى وتارة سمت الجنس الأصفر، وتارة سمت الأصولى الإسلامى؟ هى ظاهرة فريدة يجد أعقل السياسيين وأكثرهم رزانة من الصعوبة بمكان أن يحجموا عن استغلالها، والاستفادة لصالحهم من هذا الجنون الجماعى لدى الناخبين، بإيهامهم أنهم أقدر الناس على التصدى لهذا «الخطر» الذى يتهدد «أسلوب الحياة الأمريكى»..

ثم ماذا عن تصريح أدلت به السيدة بربارا بوش فى حديث تليفزيونى لها عن كيف بات الإنسان الأمريكى اليوم فى حال من الخوف المستمر، سواء كان فى الطريق، أم فى مقر عمله، أم فى عقر داره؟ ماذا عما نشرته صحيفة «واشنجطون بوست» من أن أكثر من ثلث موظفى مكاتب البريد يقضون ساعات عملهم فى خوف دائم من السطو المسلح؟.. نعم هم يبتسمون لك ابتسامة عريضة فى الطريق. غير أنهم أيضًا يتلفتون وراءهم فى حذر وهم فى سيرهم أو واقفون على السلم الكهربائى المؤدى إلى قطارات الأنفاق، خشية اعتداء مفاجئ، أو سطو مباغت.. فمعدل الجريمة فى الولايات المتحدة فى ارتفاع مطرد، بسبب البطالة، وتعاطى المخدرات، وحسد الفقراء لبذخ عيش الأغنياء، وتأصل العنف فى طبيعة الإنسان الأمريكى.. أنا أدرك أن الحديث عن معدل الجريمة فى الولايات المتحدة شاسعة المساحة هو كحديثك عن معدلها فى مجموع الدول الأوروبية من موسكو إلى لندن.. غير أن عدد الجرائم فى العاصمة

الأمريكية وحدها فى العام الواحد يفوق عددها فى القطر المصرى كله فى نفس الفترة الزمنية. والجرائد تُفرد للجرائم كل يوم صفحات أكثر مما تفرده للأنباء الخارجية، وثلاثة أرباع مدة نشرة الأخبار فى الإذاعة والتليفزيون مخصصة لجرائم السطو والاغتصاب والقتل والسرقة والاعتداء الجنسى على الأطفال، بحيث يخيل إلى المرء أن الجريمة أهم مظهر من مظاهر الحياة الأمريكية، وبحيث بات توقع الأذى المفاجئ من المعتدين جزءًا لا يتجزأ من تفكير المواطنين، سائرين كانوا على أقدامهم فى الطريق، أو راكبين سياراتهم، أو جالسين فى حديقة عامة، أو حتى قابعين فى عقر دورهم.. وقد شغلت وسائل الإعلام هنا الشعب (والعالم) على مدى عام أو نحو عام بقضية أو. جى. سيمبسون قاتل مطلقته وصديقها، كما شغلته مدة طويلة بقصة أم فى الثالثة والعشرين بولاية كارولاينا الجنوبية (سوزان سميث) ذكرت للشرطة أن أمريكيا أسود اعترض سيارتها عند إشارة مرور، وأمرها تحت تهديد السلاح أن تغادر السيارة وتتركها له، رافضًا أن يسمح لها بأن تأخذ ولديها الجالسين فى المقعد الخلفى بحجة أنه ليس لديه وقت، ثم انطلق بالسيارة والطفلين إلى جهة غير معلومة.. ظل الشعب الأمريكى بأسره طيلة تسعة أيام يتابع فى وسائل الإعلام أخبار بحث المواطنين والشرطة عن السيارة والجانى فى طول البلاد وعرضها، ويشاهد الأم فى التليفزيون تبكى وتتضرع إلى خاطف ولديها أن يردهما إليها، فيبكى الأمريكيون معها ويدعون بالسلامة للطفلين.. ثم إذا بها فى اليوم العاشر، وبعد اكتشاف الشرطة فى غرفة نومها خطابا موجها إليها من عشيقها يخبرها فيه أنه عدل عن فكرة الزواج منها بعد تطليقها من زوجها لعدم استعداده تحمل مسئولية

أطفال لهـا مـن غيره، تعـترف للشـرطة بأنـها هـى التـى قتلت ولديـها بإغراقهما وهما فى السيارة فى بحيرة خارج بلدتـها.. وقـد زاد مـن هـول وقع هذه الجريمة فى نفوس الأمريكيين أن يذاع فى نفس الأسبوع الـذى أغرقت فيه سوزان سميث طفليها، أن امرأة أمريكية أخرى قتلـت ابنتـها الصبية إرضاء لزوجها الجديد..

(٣)

أمر آخـر صدمنـى هنـا أثنـاء متـابعتى للحملـة الانتخابيـة الرئاسـية، وجعلنى أوقن بافتقار النظام السياسى الأمريكـى إلى الكفـاءة والصلاحيـة، بل وإلى القدرة على الصمود والثبات..

فالحياة الحزبيـة فـى تدهـور مطـرد، وقـد بـات الحزبان السياسيان الرئيسيان مجرد إطار لانتقاء المرشـحين لخـوض الانتخابـات. وحيـث أن الحزبين: الديموقراطى والجمـهورى، لا يقومـان إلا علـى خدمـة مصالح كبار ملاك الثروة (وهم أصحاب اليد الطولى فى إدارة سياسة الدولـة «مـن وراء ستار»)، فإنـه ليـس أمـام النـاخبين مـن أفـراد الشـعب أى اختيـار حقيقى، سواء فى انتخابات الكونجرس، أو حكـام الولايـات، أو رئاسـة الجمهورية.. فالمصالح الخاصة لطبقة معينة محدودة هى التى تهيمن على النظام السياسى الأمريكى. بل إن النظام السياسى الأمريكى نفسه هو مـن ابتكار المصالح الخاصة لطبقـة رأت اسـتبعاد عامـة الشـعب مـن ممارسـة السلطة، ولن تقبل أبدا (عن طيب خاطر) إحداث تغيير فى هذا الوضع..

كتب السياسى البارز الكسندر هاميلتون أثناء مناقشة الدستور الأمريكى فى أواخر القرن الثامن عشر:

«يقال إن صوت الشعب هو صوت الله. وهى مقولة غير صحيحة. فالشعب متقلب متغير، نادرًا ما يقدر على الحكم الصائب أو معرفة الحق. ولذا فإنه من المصلحة إعطاء الأغنياء ونبلاء المحتد نصيبًا متميزًا ودائمًا من الحكم»..

وقد كان أن سمح الدستور الأمريكى للملكيات الكبيرة بأن تحكم البلاد كما تهوى – إلى حد بعيد – دون مسئولية تجاه الشعب أو أية جهة أخرى. فالدولة – كما ذهب الفيلسوف الألمانى هيردر – «هى لضمان سعادة جماعة معينة، وما من دولة حتى اليوم سمحت عن طيب خاطر بأن تنتقل هذه السعادة إلى غير الجماعة التى تهيمن عليها».. وقد تنبأ توماس جيفرسون منذ البداية بتدهور النظام السياسى الأمريكى، ونصح باجتماع مؤتمر دستورى مع كل جيل على الأقل لتعديل الدستور بحيث يوائم الأوضاع المستجدة، والاحتياجات المتغيرة. «فالقوانين والأنظمة يجب أن تسير جنبا إلى جنب مع تطور العقل البشرى. وكلما غدا هذا العقل أكثر استنارة ونضجًا مع اكتشاف الحقائق الجديدة، وتغير العادات والآراء بتغير الظروف، غدا من المحتم تطوير المؤسسات لتسايرالزمن. أما مطالبة المجتمع بأن يظل دومًا تحت أنظمة أسلافه، فهى كمطالبة الرجل بالاستمرار فى ارتداء المعطف الذى كان يرتديه وهو صبى»..

غير أن نصيحة جيفرسون لم يؤخذ بها، ولو عاد الرجل إلى الولايات المتحدة اليوم لأذهله أن يرى المواطن الأمريكى فى معطفه القديم غير قادر على تحريك ذراعيه، وأن يرى طبيعة النظام الحزبى على ما كانت عليه منذ البداية: أصحاب الثروات الطائلة تتحكم فى الحزبين الرئيسيين

والحزبان الرئيسيان يتحكمان فى الدولة، والدولة تجمع الضرائب من الشعب، وترد إليه جزءًا بسيطًا منها لمجرد تجنب تمرده، فى حين تحتفظ بالنصيب الأكبر «لنفقات الدفاع»، وهو نصيب يعود فى خاتمة المطاف إلى أصحاب الثروات الطائلة من الحكام الحقيقيين..

لذا فإن أغبى إنسان هنا يدرك بوضوح أنه كيفما كان تصويته فى انتخابات الرئاسة أو الكونجرس أو حكام الولايات، فلن تمثل مصالحه، ولن يكون لهذه المصالح أى اعتبار لدى الفائزين فى الانتخابات، وأن الأوليجاركية الحاكمة لا تخدم إلا نفسها.. وهو ما يفسر لنا ظاهرة عزوف ما بين ٤٥٪ و٥٠٪ ممن لهم حق الانتخاب عن ممارسة حقهم، رغم كل ما يدور من أنشطة ودعايات، وضجيج ومهرجانات، وخطب رنانة ومسيرات، عشية أية انتخابات. وثمة حاليا من الدلائل ما يشير إلى أن هذا الشعب قد بدأ يفقد صبره إزاء هذا الوضع، وبدأ يُظهر امتعاضه وسخطه على كل هذا الإنفاق السخى على التسلح.. وما كان تصويته فى انتخابات نوفمبر ٩٤ لصالح الجمهوريين المعارضين حبا للحزب الجمهورى، وإنما كان عن كراهية للحزب الديموقراطى الحاكم، تمامًا كما كان تصويت الجزائريين لصالح الجبهة الإسلامية للإنقاذ فى انتخابات ديسمبر ١٩٩١، لا عن ثقة فى الجبهة، وإنما عن كراهية وفقدان للثقة فى حزب التحرير الحاكم..

(٤)

يقول تولستوى: «لو أن عصفورًا هَجَر الطيران وشُغف بركوب الدراجة، جاء إلىّ يشكو مما ينتابه بين الحين والحين من اضطرابات

عصبية، ويطلب منى أن أصف له الدواء، لما لبيت طلبه، ولأمرتهُ فى غضب أن يعود إلى ما خُلق من أجله»..

وفى ظنى أن هذه المقولة لتولستوى تنطبق تمامًا على النمط الأمريكى فى الحياة: حشدٌ من المشكلات الحيوية، وحشد من الحلول المقترحة لهذه المشكلات، دون أدنى إشارة إلى أن المُثُل المنشودة والأغراض المتوخاة، مهما كان بريقها، ومهما كان سحرها، ليست مما خُلق الإنسان له..

خواطر وانطباعات من واشنجطون

- ٣ -

(١)

البعض خارج الولايات المتحدة يذهب إلى أن العالم يعيش الآن فى ظل «السلام الأمريكى»، ويقارنه بالسلام الرومانى فى زمن أغسطس قيصر وخلفائه..غير أن هذا غير صحيح.. والتشبيه الأقرب إلى الحقيقة هو تشبيه الولايات المتحدة الآن بجمهورية البندقية بعد أن سقطت الإمبراطورية البيزنطية على يد محمد الفاتح، فَخلَفَتْها على الكثير من مستعمراتها السابقة، تماما كما خلفت الولايات المتحدة بريطانيا بعد تصفية إمبراطوريتها. فقد كانت جمهورية البندقية آنذاك - شأن الولايات المتحدة الآن - دولة لا هم لها غير الثروة والرخاء المادى والتجارة، والحفاظ على السلام كسبيل للحفاظ على الثروة والرخاء وحماية التجارة.. لم تكن لدى تلك الجمهورية رسالة تُلهب المخيلة وتثير الحماس، غير أنها نجحت فى تحقيق أغراضها، واكتفت بهذا النجاح.. وكذا الولايات المتحدة.. لم تكن الشيوعية أبدا لتشكل خطرًا عليها. ولا هو الإسلام السياسى يتهددها الآن. وإنما يشكل الخطر الأوحد الآن عليها تزايد الثروة والكفاءة والمهارات لدى «جمهوريات» أخرى تريد أن تنتهز فرصة التدهور الملحوظ فى المستوى الثقافى والأخلاقى فى الولايات المتحدة، فتحاول انتزاع الأسواق الخارجية منها. وهو ما قد تفعله اليابان فى يوم قريب، أو ألمانيا والجماعة الأوروبية..

لن تكون نهاية الولايات المتحدة إذن على يد قنبلة نووية، وإنما على يد عملة أقوى من الدولار. والقادة الأمريكيون يعلمون جيدًا أنهم

لا يجاهدون من أجل «عالم حـر»، وإنمـا مـن أجـل حمايـة إمبراطوريـة اقتصادية ليس من صالح الأمريكيين أن يفرطوا فيها، أو أن يدعوها تسقط في يد آخرين..

□□□

إن أية مساعدة تقدمها الولايات المتحدة لهذا النظام الأجنبـي أوذاك، تزيد من ارتباطه بها، واعتمـاده عليـها، شـاء ذلـك أم أبـاه، أقـرَّ بـه أم أخفاه، رضي عنه أم سخط عليه.. ذلـك أن الولايـات المتحـدة إن قدمـت القروض إليه لبناء مصنع مثلا، فلابد أن يعود إليها يومًا في طلـب قطـع الغيار لآلاته، أو الفنيين والخبراء لتجديـده أو تنشـيط إنتاجـه، وهـو مـا يعود بالنفع على الاقتصاد الأمريكي ويساعده على التوسع.. وهذا هو كـل ما وراء البرنامج الأمريكي للمسـاعدات الخارجية. فإمبراطوريات اليـوم لا تُدار بالسيف، وإنما يُديرهـا الـدولار.. والأمريكيـون لا يسـعون إلا وراء كسب المزيد من الدولارات، والمحافظة على مستوى معيشتهم، ولا هدف قومي لهم غير هذا.. لا المجد يُغريهم، ولا حقوق الإنسان تشـغل بـالهم، ولا رسالة يشعرون بأنهم مطالبون بتبليغها إلى العالم أجمع . وهذا الموقـف المادى هو بالضبط سر نجاحهم المادى، وهـو فـي رأيـهم الموقـف الصحـي الأمثل من العالم الخارجي..

(٢)

بعد هزيمة اليابـان عام ١٩٤٥، كان أمام الولايـات المتحـدة خيـاران: إما نزع السلاح والاستمتاع بالرخاء الناجم عن تحويل الثروة والطاقـة مـن ميدان التسلح إلى القطـاع الخـاص (وهـو مـا فعلتـه بعـد الحـرب العالميـة

الأولى)، أو الاستمرار في التسلح وإحكام القبضة لا على حلفائها ودول المحور المهزومة فحسب، وإنما أيضا على الحياة الاقتصادية (والسياسية) داخل الولايات المتحدة نفسها.. وقد كانت إحدى نقط التحول الهامة في التاريخ الأمريكي خطبة ألقاها الرئيس هاري ترومان في ١٢ مارس ١٩٤٧، أعلن فيها أن بلاده تنوي مراقبة كل حدود الاتحاد السوفييتي والدول الدائرة في فلكه، ومساعدة كافة الأنظمة - أيا كانت طبيعتها، فاشية كانت أم ديموقراطية، غاشمة أم مستنيرة، متى أظهرت وأثبتت عزمها على الوقوف في وجه التوسع السوفييتي، والحيلولة دون انتشار الشيوعية، حتى إن أدت مثل هذه المساعدة إلى احتمال نشوب حرب عالمية جديدة.. وقد رحبت الدوائر العسكرية الأمريكية بهذا الاتجاه الذي يبرر زيادة الإنفاق الحربي باسم حرب مقدسة ضد الشيوعية. ولا يهم بعد ذلك ما إذا كان الاتحاد السوفييتي وقتها يشكل أو لا يشكل خطرًا عسكريًّا أو اقتصاديًّا على الولايات المتحدة أو العالم المسمَّى بالحُر، وإنما المهم هو تضخيم هذا الخطر والإيهام به، من أجل خلق «دولة الأمن القومي» في الولايات المتحدة، وهي الدولة التي لاتزال قائمة إلى اليوم بعد نحو نصف قرن من إرساء قواعدها، والتي لا تشبه في كثير أو قليل صورة الولايات المتحدة في أية مرحلة سابقة من تاريخها.

وقد نصح السيناتور آرثر فاندنبرج الجمهوري الرئيس الديموقراطي ترومان وقتها بأنه إن كان حقًّا يريد إنتاج كل تلك الأسلحة، وفرض الضرائب الباهظة على الشعب من أجل إنتاجها، فعليه أن يعمل جاهدا من أجل إثارة مخاوف الشعب الأمريكي من الخطر الشيوعي. وقد استجاب ترومان لهذا النصح، وشرع منذ ٢٣ أكتوبر ١٩٤٧ يلقي الخطبة

إثر الخطبة عن الخطر الأحمر الذى يُهدد بابتلاع فرنسا وإيطاليـا، ويثـير الفزع فى قلوب الأمريكيين، وهى سياسة سار عليها خلفـاؤه، عـدا فـترة قصيرة فى أواخر عهد أيزنهاور الذى انبرى فى لحظة صدق يحذر شـعبه من احتمالات هيمنة دائمة على الدولة من جانب العسكريين وكبار رجال الصناعة والمال..

بدا الأمر فى ظاهره وكأن الحكومة الأمريكية لا شاغل لهـا إلا حمايـة حرية رعاياها ورعايا الدول الحليفة من خطر عدو رهيـب عظيـم البـأس، فى حين كان الخطر الحقيقى يتمثل فى سادة دولة الأمـن القومـى الذيـن تمكنوا من الإمساك بكافة مقاليد الأمور فـى الولايـات المتحـدة حتـى فـى زمن السلم، وراحـوا يدبـرون الانقلابـات ضـد الأنظمـة الأجنبيـة التـى لا يرضون عنها، أو يثـيرون المتـاعب لهـا، (ومنـها نظـام عبـد النـاصر فـى مصر)، ويزيدون من الضرائـب علـى الشـعب مـن أجـل خدمـة جماعتـهم الصغيرة، وبحجة الحاجة الماسة إلى تعزيز وسائل الدفاع..

وقد كان أن خـاضت الولايـات المتحـدة منـذ زمـن ترومـان، وبوصفـها زعيمة «العالم الحر»، حروبًا مباشرة أو غير مباشرة فـى كـل مـن كوريـا وفيتنام وكمبوديا ولاوس، والبحـر الكـاريبى وأمريكـا الوسـطى، وأفريقيـا وشيلى والشرق الأوسط. الخ، كلها أو جُلها باسم الحريـة والديموقراطيـة وحقوق الإنسان، ولمساندة أنظمة معظمها ينتهك فى بلادها مبادئ الحرية والديموقراطية وحقوق الإنسان. وقد كانت الولايات المتحدة فـى كـل مـرة تساند فيها نظامًا فاشيًّا (أو شموليًّا) تتذرع بحجة أن ذلـك النظـام يتبنـى العقيدة القومية الأمريكية، وهى العداء للشيوعية..

وحيث أن الولايات المتحدة لا تعرف نظامًا حزبيًا حقيقيًا على غرار الأحزاب السياسية فى أوروبا الغربية، ولا تكاد المعارضة فيها تعرف سبيلاً إلى وسائل الإعلام ، فإن تلك الحروب الأمريكية فى الخارج كانت تبدو دائمًا وكأنما هى تتمتع بموافقة جماعية فى الداخل. فالكونجرس يوفر الأموال للبنتاجون، والبنتاجون يلبى مطالب سادة دولة الأمن القومى. والمعارضون لا تُنشر مقالاتهم فى الصحف، ولا يُستدعون للحديث فى الإذاعة والتليفزيون، ودور النشر تحجم فى العادة عن نشر كتبهم، أو تطالبهم بحذف فصول أو تغيير مضمون فصول، ووسائل الإعلام كافة تصور المعارضة على أنها تافهة هامشية، أو خبيثة شيطانية، مغفلة حقيقة أساسية هامة : هى أن كل الحروب التى خاضتها الولايات المتحدة منذ عام ١٩٤٥ كانت بأمر السلطة التنفيذية، فهى بالتالى غير دستورية، حيث أن الدستور ينص صراحة على أن الكونجرس وحده هو صاحب الحق فى إعلان الحرب.

(٣)

إن الأمريكى العادى على دراية دقيقة واسعة بمصالحه الشخصية، ويدرك بوضوح أن نوعية الحياة فى بلاده فى تدهور، وأنه - بسبب هذا التدهور - يعيش فى قلق مستمر من أن يستغنى عنه رب العمل فى أية لحظة. أما عن الأسباب الحقيقية لهذا التدهور فما من أحد يشرحها له، بالنظر إلى أن سادة البلاد من أصحاب الثروات الضخمة يتحكمون تحكما كليًا فى وسائل الإعلام، وفى مناهج التعليم..

كتب الفيلسوف الإنجليزى ديفيد هيوم عام ١٧٥٨ يقول: «ليس هناك ما يبدو أكثر غرابة فى أحوال البشر من سهولة حكم القلة للكثرة،

وخضوع الجماهير الغفيرة لعدد ضئيل من الحكام. فإن فتشنا عن سبب ذلك تبين أن القوة دائمًا هي في جانب المحكومين، وأن الحكام لا يستندون إلا إلى رضا الرأى العام، سواء في أشد الأنظمة طغيانًا أو أكثرها حرية وشعبية»..

والواقع أن قدرة السادة الأمريكيين من أصحاب الثروات على إحكام قبضتهم على الرأى العام وعلى تكييفه، من أكثر مظاهر الحياة الأمريكية إثارة لعجب سائر العالم الغربى. فما من دولة من دول العالم الأول نجحت مثل هذا النجاح الباهر فى أن تستأصل من كافة وسائل الإعلام أى اتجاه إلى الموضوعية، وأى ميل إلى المعارضة.. صحيح أن بوسع أى مواطن أمريكي ذكي، متى توفر لديه الوقت والطاقة، أن يصل إلى حقيقة الأمور. غير أن الأكثرية لا فائض وقت لديها ولا فائض طاقة يمكنها من تحصيل الأخبار من خارج وسائل الإعلام. وأخبار وسائل الإعلام - شأن الإعلانات التجارية - لا هم لها إلا إبقاء جموع الشعب على وداعتها، ورضاها وطاعتها، ونهمها إلى استهلاك السلع أوحيازتها..

□□□

أهم هذه الوسائل طرا (لتسويق السلع وتكييف الرأى العام) هو التليفزيون. فالأسرة الأمريكية العادية تدير التليفزيون فى مسكنها قرابة سبع ساعات فى اليوم، مما يعنى أن الأمريكى متى بلغ سن السابعة عشرة يكون قد شاهد نحو ثلاثمائة وخمسين ألف إعلان تجارى تكيف بها سلوكه الاستهلاكي. وثمة ما يمكن تسميته بالمكتب السياسى (بوليتبيرو) أو مجمع الكرادلة يتحكم تحكمًا صارمًا دقيقًا فيما ينبغى

للمواطنين أن يعرفوه وما ينبغى ألا يعرفوه. فهو الذى يحدد ما على السياسيين وقت الانتخابات أن يقولوه، ويحرص بالأخص على أن يخفى عن الشعب حقيقة أن أكثر من ثلثى إيرادات الحكومة الفيدرالية وقت السلم ينفق على الدفاع والتسلح، وعلى عدم السماح للمعارضين بشدة للنظام بالظهور فى التليفزيون فيدرك المستمعون إليهم أن ثمة وجهات نظر أخرى غير وجهة النظر التى يروج النظام لها. فإن كان لابد من السماح لمعارض (معتدل) بالحديث فى التليفزيون للحفاظ على دعوى حرية التعبير عن الرأى، فليكن ظهوره بعد منتصف الليل والناس نيام!..

والتليفزيون هو المكلف من قبل السادة المستفيدين من تجارة السلاح باكتشاف العدو إثر العدو لنمط الحياة الأمريكية ولشعب الولايات المتحدة. أو كما قال البرت أينشتاين عام ١٩٥٠: «إن أصحاب السلطة الحقيقية فى الولايات المتحدة لا نية لديهم أن يُنهوا الحرب الباردة أبدا». فإن انقضى خطر الاتحاد السوفييتى والشيوعية فهناك الجماعة الأوروبية أو اليابان، أو العرب أو الإسلام. والظاهر أن المواطن الأمريكى العادى لديه حاجة نفسية ملحة إلى أن تطلعه جهة عليا على هوية عدوه الجديد، واقتناع عميق الجذور بأنه لابد أن ثمة عدوا له يتربص به.. أيرجع ذلك إلى إحساسه بأن العالم الجائع خارج بلاده يحسده على ارتفاع مستوى معيشته؟ فماذا إذن عن دول أوروبا الغربية ذات مستوى المعيشة المرتفع؟ أم أن تلك الدول الأخيرة هى الآن أيضا قد بات يخامرها نفس الإحساس بالخطر، مما دفعها مؤخرًا إلى فرض القيود المشددة على هجرة أفراد من العالم الثالث إليها؟.. لا أدرى. غير أن إحدى قصائد الشاعر الإسكندرى اليونانى، قنسطنطين كفافى تحضرنى فى هذا المقام: وهى عن مدينة

هيلينية يعيش أهلها فى هلع دائـم من هجوم البرابـرة. غير أن البرابرة لا يأتون. ثم يتضح فى النهاية أن أهل المدينة هم البرابرة فى واقع الأمر، فإذا هم أثناء انتظارهم لوقوع الهجوم من خارجها يذبح بعضهم بعضًا داخل أسوار المدينة!..

(٤)

لقد قضت إرادة الولايات المتحدة بعد انتصار الحلفاء فى الحرب العالمية الثانية ألا تكون لألمانيا أو اليابان مؤسسة عسكرية. وكانت نتيجة إعفاء الاقتصادَيْن الألماني والياباني من أعباء الإنفاق العسكرى أن أصبحا اليوم فى مقدمة اقتصاديات الدول الأخرى. وقد ظلت دول أوروبا الغربية على مدى نحو نصف قرن تعتمد فى حمايتها من الشيوعية ومن البرابرة الروس على القوة النووية الأمريكية.. ثم إذا بالروس فى نهاية الأمر يهجرون الشيوعية من تلقاء أنفسهم، ويتحولون إلى محاولة كسب رضا الولايات المتحدة ودول أوروبا الغربية وضمان مساعدتها لهم!..

فما الحل إذن وقد زال الخطر الأحمر؟..

الإسلام هو الحل!!..

فوسائل الإعلام هنا لا تكف عن تصوير خطر الأصوليين الإسلاميين الداهم، لا على بلادهم هم فحسب، بل وعلى الحضارة والبشرية جمعاء. والاعتماد الكامل فى هذا التصوير هو على فريقين من الناس أعتبرهما أقل العناصر قدرة على فهم حقيقة الأوضاع، وأعنى الصحافيين المولعين بالتهويل، والأكاديميين من أساتذة الجامعات المغرمين بتضخيم ما يكتشفونه من حقائق صغيرة.. ولا أدل على هذا الاتجاه من ذلك

البرنامج التليفزيونى الشهير الذى أذيع فى نوفمبر ١٩٩٤ بعنوان «الجهاد فى أمريكا» عن نشاط الإرهابيين المسلمين، سواء من المقيمين فى أمريكا أو الزائرين لها، ممن يجمعون التبرعات من مسلمى الولايات المتحدة لتمويل جماعة حماس أو حزب الله، والذى أورد فيه معد البرنامج (ديفيد إمرسون) اسم الشيخ يوسف القرضاوى من بين أخطر الزعامات الإسلامية الداعية إلى الإرهاب، وطفق يترجم حرفيًّا جملا وردت فى الخطب التى ألقيت فى بعض تجمعات المسلمين هنا للتدليل على نواياهم الخبيثة الشيطانية، وخططهم لتدمير أو زلزلة أسس «الحضارة الأمريكية»، غير مدرك (أم لعله مدرك؟) لحقيقة أن اللغة العربية بطبيعتها لغة خطابية، كثيرًا ما يجدر بالباحث المنصف أن يغربلها من ثلاثة أرباع عباراتها حتى يصل إلى الغرض الحقيقى لصاحبها!..

المستقبل الذى ينتظرنا

ما دام ثمة توازن فى القوى بين شعبين أو حضارتين يدفع كلا من الطرفين إلى الاعتراف بقوة الآخر وإلى أخذه بعين الاعتبار والاهتمام، فإن «الكليشيهات» إن نشأت هنا هى فى العادة كليشيهات تنمّ عن الاحترام والتقدير، حتى مع الاعتراف باختلاف الطرف الآخر، سواء فى القيم أو الدين أو أسلوب العيش. فهنا نجد الإقرار بالجوانب الإيجابية، ومزايا أساليب الحياة لدى الآخرين، ونواحى القوة فى معتقداتهم وقيمهم.. ومن أمثلة ذلك ما نجده فى كتب الأوروبيين فى العصر الوسيط من إشادة بحضارة مسلمى الأندلس ، ومن مديح لصلاح الدين الأيوبى أو الظاهر بيبرس، وفى كتب المؤرخين المسلمين فى نفس العصر من إعجاب بشخصية فردريك الثانى إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة، أو ببلاطه فى صقلية.

غير أن كل هذا يتغير متى ما اختل هذا التوازن فى القوى، وأصبح ثمة طرف أقوى بكثير من الطرف الآخر، سواء من الناحية العسكرية أو الحضارية أو الاقتصادية.. فهنا يصبح الطرف الثانى موضع احتقار الأول، وتضحى نظرة الأول إليه ليس فقط باعتباره «مختلفا»، ولكن أيضا باعتباره ضعيفاً و «متخلّفًا»، ولا مستقبل أمامه إلا إن هو تعلّم من الأول، وتبنّى مفاهيمه وأسلوب عيشه ومظاهر حضارته. وهنا تنشأ لدى الطرف القوىّ حاجة إلى الحفاظ على ذلك الوضع من اختلال التوازن، لا بالوسائل العسكرية فحسب (فهى وسائل مكلّفة سواء بشريًا أو ماديًا)، وإنما أيضاً عن طريق النشر المتعمّد لمجموعة من الأفكار والكليشيهات الخاصة بأوجه الاختلاف بين الطرفين، وتصويرها على أنها ثابتة

لا تتغير، وذلك من أجل إثبات حقّه فى استمرار هيمنتـه، وغـرس الشك لدى الآخر فى ذاته وفى قدرته على التصدّى بنجاح لمقاومة الطرف الأول الذى ينتمى إلى جنس «أرقى»، وحضارة «أعلى».

حينئذ يهمّ الطرف الأقوى أن يشيع لدى الجميع، هنا وهناك، فكـرة أنه الطرف المتحضّر، وأن عليه عبء نشر الحضارة فى الأقطـار الهمجيـة المتأخرة، ومسئولية إلحاق هذه الأقطار بركب الحضارة والمدنية، ولـو فـى ذيل ذلك الركب.. وفى اعتقادى أنـه ربمـا كـان مـن الأهـداف الرئيسـية لإنتاج مسلسـلات تليفزيونيـة مثـل «دالاس» وغـيره، وعرضـها فـى دول العالم الثالث، إطلاع شعوب العالم الثـالث علـى مـا تتمتـع بـه الشـعوب المتحضرة من رخاء وثراء ونعيم عيش، وهو ما لن يحققه العالم الثالث ولو بعد ألف عام، «مـا لم تبـدأ شـعوبه مـن الآن بـإبداء الرغبـة والاسـتعداد لاقتفاء أثرنا نحن، وإطاعتنا طاعة كاملة، والامتثال لأوامرنا، ببيعها مثلا ما فى أراضيها من النفط لنا نحن، وهـو النفـط الـذى وجدنـاه نحـن فـى صحاريـها التـى تتبعـها اسميـا».. فعـن طريـق الأفـلام والمسلسـلات التليفزيونية وما شابهها إذن يمكن تبليغ هذه الرسالة بصورة غير مباشرة، ولكنها أكثر فعالية وأبلغ تأثيراً، بالنظر إلى أنها تتسلّل إلى العقـل البـاطن دون أن تلقى مقاومة أو اعتراضاً، فيصعب التصدّى لها أو تحدّيها.

ولا يكتفى الغرب بإبراز الجوانب «الإيجابية» من حضارته هو، وإنما يُعنـى أيضـاً بـإبراز الجوانـب «السـلبية» فـى المجتمعـات التـى يـهيمن عليها، وذلك من أجل استئصال أى إحساس بالذنب أو تأنيب الضمير قد يشعر به المهيمنون من جرّاء استغلالهم أو استعمارهم لأقطار أخرى (لاحظ مثلا صورة الأفارقة فى أفلام طرزان). فهو يصوّر شعوب تلك الأقطار على

أنها في حاجة دائمة إلى مساعدة الغرب وتوجيهاته بالنظر إلى عجزها عن مساعدة نفسها، ويحاول أن يخلق لدى تلك الشعوب استعداداً لقبول كل ما يقرّر الغرب أنه مفيد لها وله.. وعلى سبيل المثال: صحيح أنه لايزال فى العالم العربى حمير وجمال ونخيل ورمال وخيام وبدو، غير أن هناك اليوم أشياء أخرى كثيرة غير هذا.. ولذا فإن الشركات السينمائية تُكثر من إنتاج الأفلام التاريخية أو المستقاة من قصص الكتاب المقدس، حتى ترسخ في أذهان المشاهدين من الأوروبيين والأمريكيين هذه الصورة القديمة عن الشرق الأوسط.. فإن تناولت الأفلام موضوعات حديثة، فهى عادة أفلام بوليسية أو أفلام مغامرات تُظهر أهل المنطقة بنفس الصورة البدائية تقريبا.. ولا يلاحظ المتفرجون إلا نادراً أن هذه الأفلام تقدّم عامدة خدمة كبيرة لمصالح ذوى النفوذ فى الغرب، بخلقها مفاهيم وكليشيهات عن مدى تخلّف أهالى الأقطار الأخرى، كما تقدم خدمة عظمى لإسرائيل والصهيونية المهيمنة على وسائل الإعلام والصناعة السينمائية فى الولايات المتحدة على الأقل، بإثارتها مشاعر النفور والاحتقار للعرب.

□□□

غير أنه لابد من أن نضيف هنا أنه قد حدث خلال نصف القرن الأخير تغير جذرى ملحوظ فى طبيعة مصالح الغرب فى مستعمراته السابقة، وبالتالى فى سبل تحقيق أهدافه فيها.. فقد وضح فى بعض الدول - كبريطانيا وفرنسا مثلاً - أن المستفيد من المستعمرات ليس هو الشعب البريطانى أو الفرنسى، وإنما هى جماعات معينة من الطبقات العليا فى الدولتين. هذه الجماعات أضحى بمقدورها اليوم تكوين الثروات بطرق أخرى غير الاستعمار، كما أنها اكتشفت فجأة أن الإبقاء على

المستعمرات يكلف المستعمرين أكثر مما تدرّه هذه المستعمرات من دخل، بالنظر إلى اضطرار المستعمرين إلى الإنفاق على جيوشهم فيها، بل وفى بعض الأحيان إلى إنفاق بعض الأموال من أجل تخفيف أعباء الفقر المدقع الذى يعيش فيه أهالى مستعمراتهم، وهى أموال رأى المستعمرون من الأجدى إنفاقها على الطبقة العاملة فى بلادهم هم.. وبتغيّر طبيعة المصالح، قررت الدول الاستعمارية فجأة منح المستعمرات استقلالها الذى جاهدت من أجله لسنوات طويلة فى الماضى..

وفى السنوات التالية للحرب العالمية الثانية، نشأت نظرة أمريكية متفائلة، مؤدّاها أن كل الدول المتخلّفة (أو النامية كما سميت فيما بعد) يمكنها أن تلعب دوراً مرغوباً فيه، هو دور الشريك فى التجارة والصناعة الدوليتين، شأنها فى ذلك شأن ألمانيا الغربية التى ساعدها مشروع مارشال على الوقوف على قدميها.. وقد خُيّل للأمريكيين أن النهضة الاقتصادية للدول النامية يمكن أن تتحقق وأن تؤتى ثمارها فى زمن قصير جدًّا.. وبوسعنا أن نسمى تلك الفترة بفترة «أساطير التنمية»، وكان أساسها الفكرة التالية: «نحن نساعدكم الآن حتى تصبحوا قريبا شركاء فى عالم الغد الزّاهر الذى سنعيش فيه جميعاً فى رخاء عميم».. وقد كان الجميع مخلصين فى قبولهم لهذا الزعم وتصديقه. غير أن الذى حدث هو أن الفكرة لم تتمخّض إلا عن تصدير واسع النطاق لرءوس الأموال إلى الدول المتخلفة، وتصدير أوسع نطاقا للسلع الاستهلاكية، تدفع تلك الدول ثمنها مما لديها من مواد خام، ومما حصلت عليه من قروض وائتمانات، حتى وجدت نفسها دون أن تدرى مكبّلة الأيدى والأقدام، وقد زاد اعتمادها سنة بعد أخرى على الدول الصناعية فى حصولها على

السلع والمواد الغذائية والخبرات، ثم أفاقت لتدرك أنها باتت غارقة فى ديون لا هى قادرة على تسديدها، ولا حتى تسديد قيمة فوائدها.

أما عن أفراد الطبقة الحاكمة المتفرنجة فى تلك الدول فقد كانوا دائماً من الأنانية والفساد، وضيق النظرة والتعلق بمصالحهم الخاصة، بحيث قدّروا أن أهم احتياجات بلادهم تتمثّل فى السلع الاستهلاكية ومستلزمات الترف التى شاهدوها فى الأفلام المصدّرة إليهم. وإذ انصبّ جلّ اهتمامهم على الإنفاق فى بذخ على بناء القصور فى قرى الاصطياف وغيرها لأنفسهم وللأثرياء من أعوانهم، وإقامة الكبارى العلوية ورصف الطرق السريعة لسياراتهم، أصبحوا وقد انطبقت عليهم بحذافيرها قولة كسرى أنو شروان الشهيرة: «إن الملوك إذا دبّروا مُلكهم بما يأخذونه ظلماً من مال رعيّتهم، كانوا كمن يعمر سطح بيته بما يهدمه من أساسه».

وأمر مؤلم آخر، هو أن هذا النمط المتبنىٍّ من التنمية لم تصحبه تسوية للنزاعات والصراعات بين الأقطار المتجاورة فى العالم الثالث. وقد استغلّت الدول الصناعية الكبرى هذه النزاعات لصالحها بتزويد الأطراف المتصارعة بالأسلحة مقابل ما لديها من ثروات نفطية أو زراعية، وانشغلت الأقطار المتخلّفة باستخدام هذه الأسلحة فى تدمير بعضها البعض.. كذلك فإن تطبيق سبل العناية الصحية والأساليب الحديثة، نتج عنه زيادة رهيبة فى تعداد سكان دول العالم الثالث، مما كان يبتلع أولا بأول ثمار أىّ تقدّم تحقّقه مشروعات التنمية.

□□□

على ضوء هذه النكسات وغيرها تغيّرت مرة أخرى نظرة الدول الصناعية المتقدمة إلى طبيعة مصالحها، فظهرت فيها نظرية جديدة

مؤدّاها: «أن الآخرين مختلفون عنا، والأجدى أن نتركهم وحدهم، وأن نركّز اهتمامنا على المناطق القليلة ذات الثروات التى لا غنى عنها لنا ولصناعاتنا ومجتمعنا.. وأهم هذه الثروات هو النفط. فعلينا إذن أن نضمن ما يسمىّ بالاستقرار فى تلك المناطق أو الدول الهامة.. ومن حسن الحظ فإن تعداد السكان فيها هو عادة قليل. فلنجعل منها الشركاء الجدد للعالم الصناعى. وكلما زاد اعتماد مواطنيها على حمايتنا العسكرية لهم، زاد حقد جيرانهم الفقراء عليهم. غير أن هذا لن يضير العالم الصناعى فى شىء. فالحقد لابدّ أن يستثير المخاوف. وستضطر المخاوف شركاءنا الأغنياء فى الأقطار المنتجة للنفط إلى الاعتماد أكثر فأكثر على حماية الدول الصناعية القوية.. وسنكون عندئذ كالبرتغاليين الذين أدركوا فى مرحلة معينة من تاريخهم أنه لم يعد بمقدورهم الاستمرار فى استعمار وحكم بقاع شاسعة من بقاع الأرض، فاختاروا الاحتفاظ بعدد منتقى من الموانئ تظل تحت هيمنتهم، وتضمن تدفق الثروات الناجمة عن التبادل التجارى على البرتغال».

الخطر الوحيد الذى قد يتمخض عن مثل هذا الوضع الجديد على مصالح الدول الغربية، هو أن تتجه الملايين المتكاثرة من الشعوب التى لم تخترها شركاء لها والتى تركتها وشأنها، إلى التضامن والتضافر ضدها. ولكى تحول الدول الغربية دون تحقق هذا التضامن، التزمت بسياسة «فرّق تسد»، وشرعت تخلق الأسباب والدواعى التى تدفع تلك الملايين إلى التحارب فيما بينها، فى الوقت الذى تنشغل الدول الغربية فيه بتنسيق مصالحها وسياساتها الصناعية والتجارية. وسيكون بمقدور تلك الدول دائماً أن تبعث بقوات دولية إلى تلك المناطق بدعوى الحفاظ على

السلام والاستقرار، ثم تبقيها هناك إلى أبد الآبدين.. ففي بعض تلك المناطق، مثل كشمير، ظلت القوات الدولية باقية لما يقرب من نصف قرن أفلحت خلالها – لا في حلّ النزاع – وإنما في تطويقه.. وها هي قبرص وقد أضحت مثلا آخر.. وسيكون بوسع الدول الغربية دائماً أن تقنع الكافة بسهولة بأن الذنب ليس ذنبها، وإنما هو ذنب تلك الشعوب المتخلّفة التي تتحكم العواطف فيها لا العقل، والتي ستبقى إلى الأبد (على حدّ تعبير أحد الجنرالات الإسرائيليين الذي ربما كان في تعبيره أصرح مما ينبغي) كالصراصير السكارى داخل زجاجة مغلقة! وسيعمل الغرب على نشر هذه الفكرة من خلال الأفلام المصوّرة لهذه الصراعات والاشتباكات (مما تذيعه شبكة السي. إن. إن وغيرها) حتى يراها الكافة ويصدّق الجميع الزعم بأن الشعوب المتخلفة هي وحدها المسئولة عن وضعها البائس. (أفغانستان مثلا).

لقد نجحت نظم الدول الصناعية في تكييف مشاعر وآراء الشعوب المتخلفة والمتقدمة على السواء. فقد بات لدى الشعوب الغنية إحساس راسخ بتفوّقها وحقها في الهيمنة على مقدّرات العالم، وأضحى لدى الشعوب الفقيرة إيمان بتخلّفها وبمشروعية وضعها الذليل في عالم اليوم. أما الدول المتخلفة الغنية كدول الخليج المنتجة لنفط تبيعه للدول الصناعية، فلا حاجة بها إلى الإحساس بالنقص، حيث أنها باتت دول صديقة للعالم الأول وتحت حمايته.. فإن حدث ما لا مفرّ من حدوثه في بعض الأحيان وثارت الدول الفقيرة على وضعها، أو تمرّدت شعوبها على انصياع حكوماتها لشروط صندوق النقد الدولي بمضاعفة أسعار الخبز والمواد الغذائية مثلا، فستنشأ الحاجة من حين إلى آخر إلى استخدام الدول

الكبرى للقوة فى قمع تمرّدها، ما لم تكن فيها حكومات قوية يمكنها الاعتماد عليها فى استخدام الشرطة والجيش من أجل القضاء على القلاقل. وستعمل الصورة التى غرستها الدول الغنية عن حكمتها وشعورها بالمسئولية، وعن نزق «الآخرين» وافتقارهم إلى الشعور بالمسئولية، على تبرير هذه الإجراءات وهذا التدخل، حتى لو تصادف أن لاحظ البعض كيف أن هذه الإجراءات تتفق اتفاقاً تامًّا مع المصالح الخاصة للدول الغنية!

أما حكومات الدول المتخلفة فلها بالتأكيد دورها فى ظل هذا الوضع، وفى مثل هذه اللعبة. فكلما زادت خدماتها للدول الكبرى سيزيد استعداد الدول الكبرى للتغاضى عن حكمها الاستبدادى فى بلادها. ذلك أن استخدام الحكام المستبدّين بالسلطة كأدوات لتنفيذ مصالح الدول الكبرى هو أسهل على تلك الدول الأخيرة من استخدام الأنظمة الديموقراطية، وذلك بالنظر إلى شدّة خوف المستبدّين على حياتهم، وشدّة تعلّقهم بمناصبهم، مما يضطرهم اضطراراً إلى طلب حماية الدول الغنية. ومع ذلك، فستظل الدول الكبرى - كالولايات المتحدة - على تفضيلها للدول ذات التعداد الصغير من السكان، لأن إدارتها أسهل من إدارة الدول الكثيرة السكان مثل إيران والعراق والجزائر ومصر.

□□□

وفى اعتقادنا أن مثل هذه النظرة لدى الدول الصناعية نظرة ضيّقة وخطرة عليها فى المدى البعيد، وشبيهة بقولة لويس الخامس عشر «بعدى الطوفان».

فثمة خطر من أن تضحى الدول الصناعية نفسها حبيسةً فَضَحِيَّةً لمفهومها عن مصالحها وكليشيهاتها عن العالم الثالث وعن نفسها، وهى الكليشيهات التى تخلقها أجهزة الإعلام فيها.. ذلك أن كل ما يشغل بالها حاليا هو كيفية الاستفادة المادية فى الوقت الراهن وفى المستقبل القريب، ثم «بعدى الطوفان».. انظر إلى مبيعاتها من السلاح مثلا إلى الدول النامية. أو انظر إلى أفلامها وبرامجها التليفزيونية التى تخلق الرغبات والتطلعات لدى شعوب فقيرة لن يمكنها أبداً إشباعها أو تحقيقها، اللهم إلا حكامها وطبقة جدّ محدودة من الأثرياء فيها.. فالدول المتقدمة تسعى إلى أن تقلّدها تلك الشعوب لأنها – أى الأولى – تعرف أن التقليد بطبيعته يرسّخ الإحساس بالنقص والشعور بعدم المساواة.. غير أن إعلام الدول المتقدمة وأفلامها تقول للمتخلّفين: «عليكم بالعمل على اقتناء ما لدينا مهما كانت كلفة ذلك عليكم وعلى مجتمعاتكم وإلا بقيتم على تخلّفكم». ولاشك أن هذه الرسالة رسالة خطرة. فتزايد رغباتهم وتنامى تطلّعاتهم – دون القدرة على إشباعها – سيهدّدان أمن الدول الغنية. وإدراك الدول الغنية لهذا الخطر سيدفعها إلى أن تحرص – بل وقد بدأت تحرص من الآن – على بناء أسوار عالية حول مجتمعها الصناعى المتقدم حتى لا يتسّلل إليه الفقراء والإرهابيون وسائر الخطرين على الأمن من العالم الثالث.. بدأت تضع العقبات فى سبيل حصول أبناء العالم الثالث على تأشيرات دخول إلى أراضيها، أو على تصاريح بالإقامة أو العمل فيها، ورفعت أسعار تذاكر السفر إلى أقطارها. وسيأتى الوقت الذى لن تسمح فيه بالدخول إليها إلا لعدد محدود جدًّا منهم، وذلك فى أوقات الرخاء حين تكون فى حاجة إلى أيد عاملة رخيصة تقوم بالأعمال

الوضيعة التى يأبى مواطنوها أداءها، أو إلى أطفال يتبنّاهم بعض مواطنيهم حين يقل عدد السكان فى هذا البلد أو ذاك.

غير أن هذه الأسوار لا شك فى أنها ستُخترق فى يـوم مـا.. ستُخترق متى عظم الضغط عليها من الخارج.. وسيزداد الضغط عليها كلمـا ازدادت الشعوب النقيرة المتخلفة فقراً وتخلّفاً.

وهنا يكمن الخطر على شعوب الدول المتقدمة الغنية.

ولن يتحقق تصحيح الوضع إلا إذا تغيرت طبيعـة نظرتـها الراهنـة إلى علاقاتها بالعالم الثالث تغييراً جذريًّا.

مفهوم العشق
عند الغزالى وشوبنهاور

(وما العشقُ إلاّ غَرّةٌ وطَماعةٌ
يعرّضُ قلبٌ نفسَهُ فيُصابُ)
– المتنبى

نشأتُ على الإيمان المطلق بتفسير شوبنهاور للعشق كما أورده في الفصل الخاص بميتافيزيقا الحب الجنسي من كتابه «العالم إرادة وفكرة». فلما أقبلتُ في سنى النضج على قراءة الغزالى، صدمني أن أقرأ في «إحياء علوم الدين» نظرية له في العشق هي النقيض التام لرأى الفيلسوف الألماني. وكانت الصدمة من القوة، والنظرية من الغرابة، بحيث كاد أن يخيّل إلىّ أن الغزالى إنما ساقها على سبيل الهزل. غير أني وقد مضيتُ أقلّب النظر في الفكرة في هدوء، إذا بالصدمة وقد تحوّلت إلى دهشة، والدهشة إلى فهمٍ لما يعنى، واعترافٍ للرأى بقسط من الصواب، ثم إذا بى في النهاية أحوِّل إيمانى المطلق عن تفسير الألمانى إلى تفسير حجّة الإسلام، وأتحمّس لرأى الثانى الحماس كله. وهما إيمان وتحمّس قائمان إلى يومى هذا.

خلاصة الرأيين

ملخّص رأى شوبنهاور في العشق هو أنه – عكس الغريزة الجنسية – إنما يخدم الكيف لا الكمّ، ويهدف في حقيقته إلى الارتقاء بنوعية الجيل التالى وسماته الخَلقية والخُلقية ، حتى وإن هُيِّئ للعاشق أنه لا يخدم غير

ذاتـه ومأربـه. فـهو إذن تطويـر للغريـزة البهيميـة، وضـرب مـن ضـروب التسامى، وإن كان الجماع هو دومًا غايته. وإذ كان هَوَانا لا ينصـرف إلا إلى مَن ندرك لا شعوريا أن الطفل الذى سينجم عن العلاقـة الجنسـية بـه سيكون قويًا صحيح البدن والعقل، يجمع بين أوجه قوة الطرفين، ويحقّق فى شخصه تكاملاً وانسجامًا يفتقر الأبوان إليهما، فالعشق إذن خيرٌ علـى البشرية فى إطار عام من الشرّ. أما الغريزة الجنسية التـى هـى أداة إرادة العالم (ويراها شوبنهاور شرّا فـى جوهرهـا)، ووسـيلتها إلى الحفـاظ علـى النوع، فهى شرٌّ بالضرورة، لأنها أداة الشرّ لتحقيق استمرار الشرّ.

أما الغزالى، فهو مع إقراره بأن القصد من الغريزة الجنسـية (ويسـمّيها الشهوة) هو الإبقاء على النوع، وبأن العشـق الـذى هـو تعلّقٌ بواحـد مـن الجنس الآخر نابع عن الغريزة التى تتّجه إلى الجنس الآخر بوجـه عـام، يرى العشق مَسْخًا للغريزة، «وغاية الجهل بما وُضِعَ له الوقاع، ومجاوزة فى البهيمية لحدّ البهائم»!! وبـالرغم مـن أن الغريـزة الجنسـية خـيرٌ إذ أودعها الله بحكمته الكائنـات مـن أجـل استمرار الأنـواع فيحقّق بذلك غايته التى لا يمكن إلا أن تكون جليلة خيّرة، فهى - بمعنـى معـين - ضربٌ من الذلّ لا مفرّ منه، شـبيه بـذلّ الجـوع والعطـش.. أمـا العشـق، فيزيد صاحبه ذلاّ إلى ذلّ، وعبودية إلى عبودية، «لأن المتعشّق ليس يقنـع بإراقة الوقاع، حتـى اعتقـد أن الشـهوة لا تنقضـى إلا مـن محـل واحـد. والبهيمة تقضى الشّهوة أين اتّفق، وهذا لا يكتفى إلا بشخص واحد معين حتى يستسخر العقل لخدمة الشهوة».

والعشق عند الغزالى أبعـد مـا يكـون عـن ضـروب التسـامى بـالغريزة، بالعكس، «ما العشق إلا سعةُ إفراط الشهوة، وهو مرض قلب فارغ لا هـمّ

له» (يعرّضُ قلبُ نفسه فيُصابُ). فهو إذن شرٌّ بالضرورة، «ويجب الاحتراز من أوائله بترك معاودة النظر والفكر، وإلا فإذا استحكم عَسُرَ دَفْعُه.. ومثال من يكسر سَوْرة العشق في أوّل انبعاثه مثال من يصرف عنان الدابة عند توجهّها إلى باب لتدخلَه. وما أهون منعها بصرف عنانها. ومثال من يعالجها بعد استحكامها مثال من يترك الدابة حتى تدخل وتجاوز الباب، ثم يأخذ بذنبها، ويجرّها إلى ورائها. وما أعظم التفاوت بين الأمرين في اليسر والعسر!».

المفهوم العربى والإسلامىّ للعشق وبواعثه

وفى اعتقادى أن هذا الرأى فى العشق - رغم أنه لفيلسوف غير عربى - يعكس على نحو دقيق المفهوم العربى الخالص له بوجه عام، وأن الدين الإسلامى الذى يبيّن الغزالى مفاهيمه، إنما جاء مؤكدًا ومُقرًّا للمفهوم العربى فى هذا الصدد لا لمفهوم آخر. وقد لخّص المتنبى هذا المفهوم العربى فى بيت واحد، هو ذاك الذى صدّرنا به هذا الفصل.

ولا يعنى هذا بطبيعة الحال أن العرب لا تعرف العشق، أو أنها كانت دائمًا تستنكره. وإنما هو يعنى أن للعرب فى مجموعهم موقفًا عقليًّا ونفسيًّا من قضيته. فالعشق عاطفة قائمة وستظل قائمة عند العرب كما عند غيرهم. وها هى كتب الأدب بين أيدينا، ككتاب الأغانى وغيره، تغصّ بأخبار العشاق وأشعارهم.. غير أنى أميل فى هذا الصدد إلى رأى طه حسين فى أن إقبال الناس فى فجر الإسلام وضحاه إقبالاً عظيمًا على سماع الغناء، دفع المغنّين إلى اصطناع ضروب من الشعر العذرى والإباحى يغنّون فيها، وكان ثمة شعراء ينظمون لهم مثل هذا الشعر فى الغزل، ثم

ينسبونه إلى أهل البادية حينًا، وإلى أهل الحاضرة حينًا آخر.. ثم كان أن نشأ القصص الغرامى كأثر من آثار هذا الغزل، إذ احتاج الناس إلى تفسير القصائد، وإلى وصْل بعضها ببعض، فاخْتُرعت الأقاصيص الغرامية من أجل إرضاء هذه الحاجة. وهو عكس ما يعتقده البعض من أن هذه القصص أنشئت بادئ بدءٍ لتسلية الناس، ثم نَحَل القُصّاص الشعر الغرامى على اختلاف ألوانه تحليةً لقصصهم.. يقول طه حسين فى «حديث الأربعاء»:

«لسنا ننكر وجود جميل (بن معمر)، بل ولسنا ننكر أنه أحبّ بثينة. ولسنا ننكر وجود قيّس بن ذريح، بل لسنا ننكر أنه تغزّل فى لُبنى. ولكننا نزعم أن هذه الأخبار التى تُروَى عن حب جميل وقيس لبثينة ولُبنى مصنوعة متكلّفة فى أكثر الأحيان، وأن تكلّفها أحدث إلى جانب هذين الفنّين الشعريين اللذين ذكرناهما فنًّا نثريًّا جديدًا، هو فن القصص الغرامى».

□□□

فإن نحن عدنا إلى مفهوم العشق عند الغزالى وجدناه يتضمن عددًا من العناصر:

أولها: أن العشق هو نتيجة إما لآفة فى العقل (كما عند قيس بن الملوّح المعروف بمجنون بنى عامر)، أو فراغ صاحبه وتبطّله وافتقاره إلى قضية تشغله (كما عند عمر بن أبى ربيعة أو الشعراء العذريين كجميل بن معمر)، أو وَهْم خاطئ بأن فردًا معينًا فحسب، من بين جميع أفراد الجنس الآخر، هو الكفيل بإشباع حاجة العاشق. وهو وهمٌ يشترك فيه كافة العشاق.

١ - آفةٌ في العقل: ففي كتاب الأغاني: «حدّث عيسى بن دَأب قال: قلتُ لرجل من بني عامر: أتعرف المجنون وتروى من شعره شيئًا؟ قال: أوَ قد فرغنا من شعر العقلاء حتى نروى أشعار المجانين! إنهم لكثير! فقلت: ليس هؤلاء أعنى، إنما أعنى مجنون بنى عامر الشاعر الذى قتله العشق. فقال: هيهات! بنو عامر أغلظ أكبادًا من ذلك. إنما يكون هذا فى هذه اليمانيّة الضعاف قلوبها، السخيفة عقولها، الصغيرة رءوسها - فأما نحن فلا».

٢ - فراغٌ وتبطّل: فمن أمثلة ذلك ما نعلمه من أن أهل الجزيرة العربية، بعد أن انتقل السلطان السياسى منها إلى الشام وقت الأمويين، وانتقال مركز المعارضة منها إلى العراق، انصرفوا أو كادوا ينصرفون عن الاشتراك فى الحياة العامة، وفرغوا للحياة الخاصة، لا سيّما أن الخلفاء دأبوا على إغداق الأموال الوفيرة على أبناء المهاجرين والأنصار فى مكة والمدينة، اصطناعًا لهم، وضمانًا لإمساكهم بمعزل عن الحياة السياسية العملية. وإذ اجتمعت البطالة واليأس من الحياة العملية إلى الثروة والغنى، لم يكن مستغربًا أن يسرف الشبان الأشراف الأغنياء فى مكة والمدينة فى اللهو، وأن يظهر بينهم أمثال عمر بن أبى ربيعة والأحوص من شعراء الغزل الإباحى. أما أهل البادية فى الحجاز ممن لم يكن الخلفاء فى دمشق يخشون شرهم، ولا كانوا فى حاجة إلى استرضائهم، فقد غلب عليهم اليأس، ولم يُتَحْ لهم اللهو، فانصرف شبابهم المتبطلون إلى الغزل العفيف الذى يمثّل طموح البادية إلى المثل الأعلى فى الحب من جهة، وتعففها عن ألوان الفساد التى كانت تغمر أهل مكة والمدينة من جهة أخرى.

٣ – وهم خاطئ، يُعمى ويصمّ، فيحسب صاحبه أن الشهوة لا تنقضى إلا من محل واحد.. قال النبى صلى الله عليه وسلم: «إذا رأى أحدكم امرأةً فاعجبته،فليأتِ أهله، فإن معها مثل الذى معها».. ويصف ابن المقفع العشق بأنه من أوقع الأمور فى الدين، وأنهكها للجسد، وأتلفها للمال، وأضرّها بالعقل، وأسرعها فى ذهاب الجلالة والوقار. «ومن البلاء على المغرم بالنساء أنه لا ينفكّ يملّ ما عنده، وتطمح عيناه إلى ما ليس عنده منهن. وإنما النساء أشباه، وما يُرى فى العيون والقلوب من فضل مجهولاتهن على معروفاتهن باطلٌ وخُدعة، بل ما يرغب عنه الراغب مما عنده، أفضل مما تتوق إليه نفسُه. وإنما المترغّب عما فى رَحْله منهن إلى ما فى رحال الناس، كالمترغّب عن طعام بيتهِ إلى ما فى بيوت الناس. بل النساء بالنساء أشبه من الطعام بالطعام، وما فى رحال الناس من الأطعمة أشدّ تفاضلاً وتفاوتًا مما فى رحالهم من النساء.. ومن العجب أن الرجل الذى لا بأس فى لُبّه، يرى المرأة من بعيد متلفّفة فى ثيابها، فيصوّر لها فى قلبه الحسن والجمال، حتى تعلق بها نفسه من غير رؤية ولا خبر مُخبر، ثم لعلّه يهجم منها على أقبح القبح وأدمّ الدمامة، فلا يعظه ذلك عن أمثالها، ولا يزال مشغوفا بما لم يذق، حتى لو لم يبق فى الأرض غير امرأة واحدة لظن أن لها شأنًا غير شأن ما ذاق».

وثانيها: أن العشق مذلّة وعبودية، كما أنه كفيل بأن يصرف صاحبه عن جلائل الأمور، ونبيل الأغراض والاهتمامات. فإن كان احتدام الغريزة الجنسية (أو الشهوة كما يسميها الغزالى). «ضَرْبٌ من الذلّ شبيه بذلّ الجوع والعطش»، يذهب معه ثلثا العقل، فإن عشق إنسان بعينه يزيد المرء عبودية إلى عبودية، ويضيع معه العقل كله.. يقول ابن حزم فى «طوق الحمامة»:

«لقد وطئتُ بساط الخلفاء، وشاهدتُ محاضر الملوك، فما رأيتُ هيبةً تعدِل هيبة محبّ لمحبوبه. ورأيت تمكّن المتغلّبين على الرؤساء، وتحكّم الوزراء، وانبساط مدبّرى الدول، فما رأيتُ أشدّ تبجّحا ولا أعظم سرورًا بما هو فيه من محبّ أيقن أن قلب محبوبه عنده، ووثق بميله إليه، وصحة مودّته له. وحضرتُ مقام المعتذرين بين أيدى السلاطين، ومواقف المتّهمين بعظيم الذنوب، فما رأيتُ أذلّ من موقف محبٍّ هيمان بين يدىْ محبوب غضبان».

هذا الذلّ تجاه المحبوب، وهذا الاستغراق فى عشق فرد معين، رآهما المسلمون (والعرب) كفيلين بصرف الاهتمام عن أمور أجلّ، وعن الغرض الذى خُلق الإنسان من أجله، إلى غرض عارض زائل. «قيل للمجنون: أىّ شىء رأيتَه أحبّ إليك؟ قال: ليلى. قيل: دَعْ ليلى فقد عرفنا مالها عندك، ولكن سواها. قال: واللّه ما أعجبنى شىء قط ثم ذُكِرَتْ ليلى إلاّ سقط من عينى وأذهب ذكرُها بشاشتَه عندى».

دفاع عن الشهوة

قد تنطوى الشهوة عند الغزالى على قدر من الذل، غير أن الذّل فيها لا يقارن بذلّ العشق. فهنا تَقبُّل صريحٌ للغريزة الجنسية، واعتقاد بأن النشاط الجنسى جانب عادى بل ومحمود من حياة كل كائن. فإن كانت المسيحية، وشوبنهاور، قد اعتبرا حياة العزوبة مثلا أعلى، وقامت فلسفتهما على احتقار الجسد، فإن الإسلام، وحجة الإسلام، يريان أنه حتى فى الجنة والنعيم الأبدى سيكون ثمة شكل من أشكال النشاط الجنسى (حتى إن لم يعد الإنجاب واستمرار النوع مطلوبين)، ولن تكون بالجنة التى يتخلّص الإنسان فيها من جسده الذى يرسف فى أغلاله:

وقد كان من النتائج المثيرة لهذه النظرة إلى الشهوة في الإسلام، (ومما يثير استغرابًا شديدًا لدى غير المسلمين)، أن المسلمين في مجموعهم لا يرون أى تعارض بين التقوى الشديدة (أو حتى الزهد) وبين الإقبال على النشاط الجنسى: كان علىّ بن أبى طالب وابنه الحسن شديدَىْ النّهم إلى النساء، مِزواجين مِطلاقين، عكس معاوية بن أبي سفيان الذى لم يكن يُولى إشباع الشهوة قدرًا كبيرًا من اهتمامه. ومع ذلك فما من أحد بوسعه أن يدّعى أن معاوية كان أعظم تقوى من النبى أو من عمر وعلىّ والحسن ابن علىّ. كذلك فإننا لا نلمس أية مشكلة تثيرها حدّة الرغبة الجنسية عند أعلام الصوفية (وغير أعلامها) عكس الحال مع متصوفة المسيحية كالقديسة تيريزا، أو مع رهبانها ونُسّاكها ورجال الدين الكاثوليك. فالغالبية العظمى ممن نعرفهم من أعلام التصوف كانوا يتزوجون ويَتَسَرّون ويُنجبون، ولو كانوا قد وجدوا تناقضًا بين النشاط الجنسى وبين السعى وراء الانغماس في الذات الإلهية، لتحدّثوا عنه، ولوصلتنا بعض أقوالهم في هذا الصدد، كتلك التى وصلتنا عن استنكارهم للنهم إلى الطعام، أو الانشغال بالملبس. أما القليلون القليلون الذين تركوا عمْدًا خِلاط النساء، أو ظنوا أن النشاط الجنسى يشغلهم عن مقتضيات العبادة، فالأرجح في ظننا أن موقفهم هذا جاء متأثرًا بديانات الهند، أو بممارسات رهبان ونسّاك المسيحية. وقديما قال النبى عليه الصلاة والسلام: «إن كنت من رهبان النصارى فالحقْ بهم، وإن كنت منا فمن سُنّتنا النكاح». كما حكى عن أحد الصالحين المكثرين للنكاح أنه أجاب على استنكار متصوف لسلكه: هل يحدث حين تجلس بين يدى اللّه تعالى جلسة أن يخطر على قلبك خاطر شهوة؟ قال: يصيبنى من ذلك

كثير. فقال: لو رضيتُ بمثل حالك لما تزوّجت، لكنى ما خطر على قلبى خاطر شهوة يشغلنى عن العبادة إلا قضيت شهوتى فأستريح وأرجع إلى شغلى!

قارن هذا الموقف بالمنام الذى رأت فيه القديسة تيريزا وكان «ملاكاً بالغ الحُسن والجمال يطعن قلبى مرات عديدة بقضيب طويل من الذهب فى رأسه نار، حتى بلغ به صميم أحشائى.. وقد كان الألم حقيقيًّا لدرجة أنى اضطررت إلى التأوّه بصوت مسموع. ومع ذلك فقد كانت اللّذة عظيمة طغَت على ما كنت أشعر به من الألم. فما فى الحياة من ملذّة بوسعها أن تحقّق مثل هذا الرضا. وإذ استلّ الملاكُ القضيبَ تركنى أتحرّق حبًّا فى الله».

وهو منام كان كفيلاً بأن يُثلج صدر فرويد! ومع ذلك فإن الكاثوليك الأسبان يحتفلون فى السابع والعشرين من أغسطس من كل عام بذكرى هذه الرؤيا للقديسة تيريزا. وهى رؤيا لا نحسب متصوفاً مسلماً قد رأى مثلها.. كما لا نحسب متصوفاً مسلماً واحداً يمكنه أن يقول مع الزاهد بطرس داميان: «بوسعى الآن وقد طعنت فى السن أن أنظر وأنا آمن إلى وجه امرأة عجوز شمطاء عمشاء العنين: أما من هنّ أجمل منها وجها فإنى أغضّ الطرف عنهن، وأحذرهنّ كما يحذر الصبيان من النار. ويلاه أيها القلب المفجوع الذى لا يستطيع أن يحفظ آيات من الكتاب المقدس قرأتُها مائة مرة، فى حين لا تنمحى منه صورة امرأة لم أرها غير مرة واحدة!».

كانت العفّة تبدو لمعظم الرهبان فى صورة صراع نفسى حادّ بين المرأة والمسيح، وكان تشهيرهم بالنساء واعتبارهن أداة للشيطان، من قبيل

محاولة إماتة شعورهم بمفاتنهن. والتاريخ مع هـذا ملئ بقصص الرهبان الذين سمحوا لأنفسهم بالوقوع فى براثن هذه المفاتن. كمـا أننـا نجـد فـى التماثيل المقامة فى بعض الكنائس الكبرى، والنقوش المحفورة فى أثاثها، بل الرسوم المصوّرة فـى بعـض الكتـب المقدسـة نفسـها، ما يمثـل عيـث الرهبان والراهبات، وأثواب الدير بارزة فوق أعضاء التذكير المنتصبة. وقـد سمح رجال الكنيسة فى العصور الوسطى بهذه الرسوم والتماثيل. غير أن رجال الدين فى عصرنا هذا رأوا من الأفضل إزالة الكثرة الغالبة منها.

كان الإسلام دائماً يرى فضل المتأهّل على العزب كفضل المجاهد علـى القاعد. وقد اعترف الجميع له، حتى من كـانوا مـن أعدائـه، أنـه أوجـد توازناً مُرضيا بين الأخلاق والغرائز، وأنـه بـإقراره أن الإنسـان بعيـد عـن الكمال، وبتقبّله لأوجـه ضعفه، قد أفلـح فـى استئصال الشـعور بـالذنب لدى المسلم. وهو إحساس مرضىّ كثيراً ما تسبّب لدى أفراد الملل الأخـرى فى اضطراب فكرى وسلوكى. وعلى ضوء هذا يمكن القول بأن الإسلام عَمَر قلوب أتباعه بثقة أساسية فـى الحيـاة، وزوّدهـم بنظـرة إيجابيـة متفائلـة إليها، وأنه لا يرى من بين خطايا البشـر خطيئـة لا تُغتفـر غـير خطيئـة الشرك بالله.

شوبنهاور والإسلام

إزاء هذه النظرة المتفائلة إلى الحياة وإلى الشهوة، لم يكن من المستغرب أن يصفها شوبنهاور بالسطحية المفرطة. ومـع ذلـك فقـد رأى الرجـل فـى الإسلام ونمط الحياة الإسلامية ما أقرّه وحمده. فهو الذى دعا الأوروبيـين عقب الحروب النابوليونية التى حصدت أرواح الآلاف المؤلفة من الرجال،

وتركت نسبة الإناث أعلى بكثير من نسبة الذكور، إلى الأخذ بمبدأ تعدّد الزوجات الكفيل بإنقاذ ملايين النساء من شرور الدعارة. غير أن الأهمّ من ذلك أنه (مع اعترافه بأن ضعف النساء يستدعى معاملتها معاملة رقيقة خاصّة)، كان يستشيط غضباً إزاء تسميتهن بالجنس اللطيف، وإزاء ما يراه فى أوروبا من احترام الرجال وتوقيرهم للمرأة توقيراً يجاوز الحدّ، ويثير ضحك وسخرية المسلمين والشرقيين بوجه عام، ويذكّرهم بتقديس البقر فى الهند، والقرود فى مدينة بينارس، كما أنه كان كفيلاً بأن يكون مثار الاستهزاء عند الإغريق والرومان.

فتسمية النساء بالجنس اللطيف لم تكن لتصدر - فى رأى شوبنهاور - إلا من رجال غلبت الشهوة على عقولهم، وتأثروا بأفكار الحمقى من الفرنسيين عن النّخوة وأخلاق الفروسية والشهامة، فإذا هم بتبجيلهم الزائد للمرأة، وإفساح مكان الصدارة لها، وتقديمها على الرجل، وتقبيلهم يدها، إلى آخره، قد زادوها صَلَفاً وغطرسة حتى هُيّئ إليها أن بوسعها الإقدام على فعل أىّ شىء، وأحلّوها مكانةً زائفة ليست أهلا لها، ولا هى بالتى تمتلك مقوّمات شَغلها. أما المسلمون فقد كانوا دائماً يضعون نساءهم فى مكانهن الطبيعى، مما كانت له آثاره الحميدة فى حياتهم الاجتماعية وهو ما ينبغى للأوروبيين أن يسعوا إلى التعلّم منه، والاقتداء به.

سماحة الإسلام

(١)

هل حدث وتأمل مسلمٌ في حكمة اختتام الصلاة بالالتفات إلى الجالسين إلى يمينه قائلاً: «السلام عليكم ورحمة الله»، ثم الالتفات إلى الجالسين إلى يساره قائلاً: «السلام عليكم ورحمة الله»، ثم مصافحة جاريْه إلى اليمين وإلى اليسار مع الدعاء للكافة بالاجتماع فى الحرم؟

هل حدث ورأى فى هذه الخاتمة للصّلاة رمزاً لسماحة الإسلام، وتقبُّلاً من المسلم لمن هُم فى الرأى عن يمينه أو عن يساره، وتذكرة بأن الأمة مهما بلغ اختلاف الآراء بين أفرادها تجتمع فى الصلاة والصوم والحج وسائر العبادات، ودعاءً إلى الله أن يجنب هذه الأمة شرّ الفوضى، وأن يبقى اختلاف الرأى بين أبنائها رحمة، ما تمسّكوا بالتسامح بينهم، وبحق صاحب الرأى المخالف لرأيهم فى المخالفة، وتأكيداً لحقيقة أنه ليس لمسلم أن يتكلم باسم الإسلام ظانًّا أنه وحده - أو هو وجماعته وحدهما - من يفهم النص على حقيقته، وأن غيره هو حتماً على خطأ، فيقيم نفسه بهذا الادعاء مقام الله ويقع فى الشِّرْك؟

(٢)

ثم هل حدث أن تأمّل مسلمٌ وهو يتلو سورة النصر ﴿ إذا جاء نصرُ الله والفتح، ورأيت الناسَ يدخلون فى دين الله أفواجاً، فسبحّ بحمْدِ ربك واستغفِرهُ، إنه كانَ توّاباً﴾، أو الآيات الثلاث الأولى من سورة الفتح ﴿إنّا فتحْنا لكَ فتحاً مبيناً، لِيغفِرَ لكَ الله ما تقدّمَ منْ ذنبكَ ومَا تأخّر، ويُتمّ

نِعْمته عليْكَ ويهديَكَ صراطاً مستقيماً، وينْصرَكَ الله نصْراً عزيزاً﴾، ولاحَظَ ارتباط النعمة بالصفح والغفران؟ إن النعمة التى أسبغها الله عليه فى صورة الفتح دليل على أنه سبحانه قد غفر له ذنوبه. وإن كان الغفران والرحمة من صفات الله عزّ وجلّ، فهما بالتالى من الصفات التى يجدر بالمؤمنين محاولة التحلّى بها، والتى يجدر بالنبى عليه الصلاة والسلام أن يُظهرها تجاه أعدائه السابقين من أهل مكة الذين نصره الله عليهم وأمكنه منهم. فما لأحد أن يطمع فى رحمة الله ما لم يظهر الرحمة فى معاملاته مع غيره من سائر البشر، ولا فى غفرانه ما لم تكن السماحة والصفح الكريم من أخلاقه.

وقد كان موقف رسول الله من أهل مكة الذين كذّبوه وناوءوه وأخرجوه من مدينتهم وحاربوه، كريماً سخيًّا وقت فتحها إلى أقصى حدود الكرم والسخاء. فهو حين التقى بجمع من ساداتهم وسألهم عما يظنّونه فاعلاً بهم، وأجابوه بقولهم: أخ كريم وابن أخ كريم، قال عليه الصلاة والسلام: اذهبوا فأنتم الطلقاء! فهو قد أمّنهم على أنفسهم وأموالهم دون أن يشترط إسلامهم. فالواقدى يحدّثنا فى كتابه «المغازى» أن سُهيل بن عمرو دخل داره حين فتح المسلمون مكة، وأرسل ابنه عبد الله إلى النبى يطلب له جواراً. فلما التقى عبد الله بالنبى قال: تؤمّن أبى يا رسول الله؟ قال: نعم، هو آمن بأمان الله فليظهر. لعمرى إن سهيلاً له عقل وشرف، وما مثل سهيل جَهِل الإسلام. فخرج عبد الله إلى أبيه فأخبره، فكان يُقبل ويُدبر وهو آمن دون أن يسلم، بل وخرج بعد ذلك فى جيش النبىّ إلى حُنين وهو على شركه، حتى أسلم بعد ذلك فى الجِعِرّانة.

(٣)

وجاءت أم حكيم امرأة عِكْرِمة بن أبي جهل، فقالت للنبي: يا رسول الله، قد هرب عكرمة منك إلى اليمن وخاف أن تقتله، فأمِّنه. قال: هو آمن. فخرجت أم حكيم في طلب زوجها حتى أدركته فقالت: أيْ عكرمة! قل لا إله إلا الله ولا تُهْلك نفسك. فأبى وقال: ما هربتُ إلا من هذا!. قالت: علي أيٍّ فقد استأمنتُ لك محمداً. فرجع معها. وإذ رآه النبي مقبلاً قال لأصحابه: لا تسبُّوا أباه، فإن سبَّ الميِّت يؤذي الحيَّ ولا يبلغ الميِّت. فلما وصل عكرمة إلى مكانه وثب النبي إليه فرحاً به. قال عكرمة مشيراً إلى زوجته: يا محمد، إن هذه أخبرتني أنك أمَّنتني. قال النبي: صَدَقَتْ، فأنت آمن. قال: فإلى ما تدعو يا محمد؟ قال: أدعوك إلى أن تشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله، وأن تقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتفعل وتفعل، حتى عدّ خصال الإسلام. فقال عكرمة: والله ما دعوتَ إلا إلى الحق وأمر حسن جميل. ثم نطق بالشهادة. فقال النبي: لا تسألني اليوم شيئاً أعطيه أحداً إلا أعطيتكه. قال: فإني أسألك أن تستغفر لي كل عداوة عادَيْتكها أو حرب لقيتك فيها أو كلام قبيح قلتُه في وجهك أو وأنت غائب عنه. قال النبي: اللّهم اغفر له.

(٤)

وفي تفسير الطبري أن رجلاً في حياة رسول الله قرأ أمام عمر بن الخطاب سورة قراءةً غير قراءة عمر لها. فلما أراد عمر أن يصحّح له قراءته قال: لقد قرأتُها على رسول الله فلم يُغَيِّر عليّ. فاختصما عند النبي، وقال الرجل: يا رسول الله، ألم تُقرئني آية كذا وكذا؟ قال: بلى. فوقع في صدر عمر شيء، وعرف النبي ذلك في وجهه فضرب صدر

عمر وقال: يا عمر، إن القرآن كله صواب، ما لم تجعل رحمةً عذاباً، أو عذاباً رحمةً.

(٥)

وفى «أسباب نزول القرآن» للواحدى أن عثمان بن طلحة كان سادِن الكعبة. فلما دخل النبى صلى الله عليه وسلم مكة يوم الفتح، أغلق عثمان باب البيت (وكان لا يزال على شركه) وصعد السطح. فطلب رسول الله المفتاح، فقيل له إنه مع عثمان. فلما أرسل فى طلبه أبى، وقال: لو علمتُ أنه رسول الله لما منعتُه المفتاح. فلَوَى علىّ بن أبي طالب يده وأخذ منه المفتاح عنوة وفتح الباب. فدخل النبى البيت وصلّى فيه ركعتين. فلما خرج سأله العباس بن عبد المطلب أن يعطيه المفتاح ليجمع له بين السقاية والسِّدانة، فأنزل الله تعالى آية: ﴿إن الله يأمركم أن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إلى أهْلِهَا، وإذا حكمْتمُ بيْنَ النّاسِ أن تحكمُوا بالعدْلِ ﴾. وأمر رسول الله عليًّا أن يردّ المفتاح إلى عثمان بنَ طلحة ويعتذر إليه عما بدر منه. فلما فعل علىّ ذلك قال له عثمان: يا علىّ، أكْرَهْتَ وآذيتَ ثم جئتَ ترفق؟! فقال علىّ: لقد أنزل الله قرآنا فيك. وقرأ عليه الآية. فقال عثمان: أشهد أن محمداً رسول الله. وأسلم.

(٦)

هنا فى قصة الواحدى مثلٌ واضح لأسلوب النبى فى الدعوة ولسماحة دين الإسلام يذكّرنا بخرافة لافونتن عن الريح والشمس اللتين تراهنتا أيهما أقدر على أن يجرّد رجلا فى أحد الحقول من عباءة يلبسها. فأما الريح فهبّت تحاصره وتشدّد من هجومها، فإذا الرجل يزيد من تشبّثه بالعباءة وإحكام قبضته عليها. وأما الشمس فقد طلعت فى هدوء وثقة إلى

كبد السماء، تبثّ حرارتـها، حتـى رأى الرجـل مـن المناسـب أن يخلـع العباءة من تلقاء ذاته ويلقى بها جانبا!

وقد كان عنف عليّ بن أبى طالب كفيلاً بأن يزيد من عداء عثمـان بـن طلحة للإسلام إذ يُسلب عنوةً حقّ بنى عبد الدار في السّدانة، لولا تدخل رسول الله، وردّه الأمانة إليه، وأمره عليا أن يعتذر عـن تصرفـه العنيـف معه. وكتب السيرة مليئـة بـالمواقف التـى حقـق فيـها الرسـول بسـماحته وحلمه، ولينـه وسـعة صـدره، مـا لم يحققـه السيـف والعنـف، والغلظـة والفظاظة. ﴿ولو كنت فظًّا غليظَ القَلْبِ لا نْفَضُّوا من حَوْلِك ﴾.

(٧)

ومع هذا، فها نحن نشهد بيننا اليوم من الغلاة والمتطرفين ممن يظنون أنهم تأدّبوا بآداب القرآن والسيرة، ويحسبون أنهم قد اتخـذوا مـن النبـى عليه الصلاة والسلام أسوة ومثلاً يقتدى، من يشهد لسان حالهم وسلوكهم مع إخوانهم فى الدين وأهل الكتاب بأن المسلم كلما ازداد فظاظة وكراهـة لمخالفيه فى الرأى - إلى اليمين أو اليسار - كان أقرب إلى الله تعـالى وإلى الإيمان بالحق. وأغلب ظنى أنهم حين يتلون من آى الذكر الحكيم آيـات مثـل ﴿وجادِلْـهم بـالتى هـى أحسـن﴾ أو ﴿ ادع إلى سبيل ربِّـك بالحكمـة والموْعظَةِ الحسنَة﴾، يودّون فى أنفسهم أن القـرآن لم يوردهـا. وكثـيراً مـا تذكّرنا أفعالهم وتصرفاتهم الناضحة بالكراهية والحقد والعنف، بشـخصية جافير فى رواية «البؤساء» لفكتور هوجو. وجافير هذا ضابط شـرطة هـو ابن لمجرم أثيم. وقد بلغ به مقته لأبيه، وهو بعدُ صبى، حدّا قرّر معه أن يخالفه فى كل شيء. فكان أن أصبح ضابط شرطة يتعقـب المجرمـين مـن

أمثال أبيه فى كفاءة ومثابرة وغلظة قلب. ثم إذا به يتبيّن فى النهاية فى لحظة صدق أنه فى حقيقة أمره لا يعدو أن يكون مجرماً كوالده، وإن كان إجرامه قد تستّر وراء زىّ ضابط الشرطة، وستار تطبيق العدالة. فهو يعامل الخارجين على القانون معاملة لا تقل إجراماً عن معاملة أبيه للأبرياء!

هو إذن مجرد حقد لدى هؤلاء، كان يمكن أن يتّخذ أى صورة من الصور، ثم اتخذ بالمصادفة المحضة صورة التطرف فى الدين. وكما أن الخوارج كانوا فى الحقيقة قوماً من البدو خرجوا على السلطة ثقيلة الوطأة واتهموها بالكفر، وهجروا المدن البغيضة إلى قلوبهم وأسموها دار حرب، واستأنفوا الغارات الجاهلية بغرض السلب والغنيمة وخالوا أنها جهاد، فكذلك هؤلاء: الفظاظة والحقد والكراهية وتجاهل سماحة الإسلام هى الأصل، والدين قناع رقيق لا يكاد يخفى الوجه الكئيب وراءه.

والذى نعلمه أن القديس فرانسيس داسيسى كان يحض أتباعه دائما على أن يعكس مسلكهم وعلاقاتهم بالناس أثر العقيدة فى نفوسهم وأخلاقهم. وكان من رأيه أن هذا هو خير طريق إلى اجتذاب الناس إلى الدين، إذ من المؤكد أنهم سيتساءلون عما عساه قد هذّب على هذا النحو من خلقهم وطباعهم ومعاملاتهم، حتى إذا ما عرفوه مالوا إلى اختباره بأنفسهم.

كما نعلم أن الإسلام إنما انتشر ووطّد دعائمه فى أنحاء عديدة من أفريقيا السوداء وجنوب شرقىّ آسيا، لا بالسيف والقهر، ولا حتى بالتبشير والدعوة، وإنما بفضل سماحة خلق التجار المسلمين الوافدين إلى تلك المناطق للتجارة، وأمانتهم ورفقهم ودماثة طبعهم ووقارهم، مما دفع

الناس إلى الإقبال على سؤالهم عن تعاليم دينـهم، ثـم اعتنـاق هـذا الديـن الذى كان له الفضل الأكبر فى غرس هذه الفضائل.

فإن كان مسلمو هذا الزمان مؤمنين حقاً، فما بالهم لا ينتهجون طريـق هؤلاء؟ وما بالهم لا يلقون بالاً إلى تلك المواقف التى كان النبـى صلـى الله عليه وسلم يستشير فيها أصحابه بشأن مشرك أو منافق، فيوصى بعضـهم بقتلـه، وبعضـهم بإخراجـه مـن المدينـة، فيـهدّئ الرسول مـن غلوائـهم وغضبهم، ويتبسّم قائلاً:

- بل نترفقّ به، ونحسن إليه.

- ٨ -

قال تعالى: ﴿ولا تقولوا لمن ألقى إليكمُ السلامَ لستَ مؤمناً﴾.

وإنه لمن المؤسف حقا، رغم وضوح معنى الآية، أن المسـلمين لم يكفّوا قط، منذ وفاة النبى إلى يومنا هذا، عن عادة تكفير من يخالفهم فى رأى: عثمان كفّروه، وعلىّ بن أبى طالب كفّروه، ومعاوية كفّروه، وقد سبق لهم أن كفّروا الإمام الغزالى ثم أسموه بعد موته حجة الإسلام ومحجّة الديـن، وكفّروا الباقلانى ثم قالوا إنه صـاحب أجـلّ الكتـب فـى إعجـاز القـرآن، وكفّروا ابن تيمية الذى باتت تعاليمه أساس المذهب الوهـابى السـائد الآن فى المملكة العربية السعودية وفى قطـر، وكفّـروا الطـبرى صـاحب أعظـم تفسير للقرآن، وكفّـروا الشـيخ محمـد عبـده حـين دعـا إلى اسـتخدام مـاء الصنبور فى الوضوء بدلاً من الميضأة التى كـانت تعـجّ بـالجراثيم، وكفّـروا جمال الدين الأفغانى وهو ما هو.

قال الغزالى فى كتابه «فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة»:

«زعمت طائفة أن فى بعض كتبى ما يخالف مذهب الأصحاب المتقدمين، وأن العدول عن مذهب الأشعرى، ولو فى قيد شبر، كفر. فهوّن عليك أيها الأخ المشفق على نفسك واصبر على ما يقولون. فأىّ داع أكمل وأعقل من سيد المرسلين وقد قالوا إنه مجنون من المجانين؟ وأنّى تتجلّى أسرار الملكوت لقوم معبودُهم سلاطينُهم، وقبْلَتُهم دنانيرهم، وإرادتهم جاههم؟ فهؤلاء من أين تتميّز لهم ظُلمة الكفر من ضياء الإيمان؟ ﴿إن ربّك هو أعلَمُ بمن ضَلّ عن سَبيله وهُوَ أعلمُ بمَن اهْتدى ﴾.. خاطب صاحبك وطالبْه بحدّ الكفر، فإن زعم أن حدّ الكفر ما يخالف مذهب الأشعرى، أو مذهب الحنبلى، أو مذهب المعتزلى، أو غيرهم، فاسأله من أين ثبت له كون الحق وقفاً عليه حتى قضى بكفر الباقلانى، ولم صار الباقلانى أولى بالكفر بمخالفته الأشعرى من الأشعرى بمخالفته الباقلانى؟ ولم صار الحق وقفاً على أحدهما دون الثانى؟ أكان ذلك لأجل السبق فى الزمان؟ فقد سبق الأشعرىّ غيرُه من المعتزلة فليكن الحق للسابق عليه! أم لأجل التفاوت فى الفضل والعلم؟ فبأىّ ميزان قَدّر درجات الفضل حتى لاح له أن لا أفضل فى الوجود من متبوعه؟! فإن رخّص للباقلانى فى مخالفة الأشعرى، فلم حَجَرَ على غير الباقلانى؟ وما الفرق بين الباقلانى والكرابيسى والقلانسى وغيرهم؟.. إن من جعل الحق وقفاً على واحد بعينه هو إلى الكفر أقرب. ومع ذلك فإن كل فرقة تكفّر مخالفها: فالحنبلى يكفّر الأشعرى، والأشعرى يكفر الحنبلى، والمعتزلى يكفر الأشعرى. ولا ينجيك من هذه الورطة إلا أن تعرف حدّ التكذيب والتصديق وحقيقتهما، فينكشف لك غلوّ الفِرَق وإسرافها فى تكفير بعضها

بعضا. فهم ضيّقوا رحمة الله الواسعة على عباده، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إذا قذف أحد المسلمين صاحبه بالكفر فقد باء به أحدهما».

(٩)

كذا قال الغزالى رحمه الله. ونضيف نحن قولنا إن أظلم الناس لنفسه ولغيره من قضى بحرمان الآخرين من استخدام نعمة التفكير التى أنعم الله عز وجل بها علينا، وقصرها على نفسه.

□□□

ثم لا حلّ بعد هذا كله إلا فى التمسك بأهداب سماحة الإسلام، وبمبدأ الاحترام المتبادل القائم على حق الغير فى المخالفة انطلاقاً من قناعاته وانسجاماً معها، وفى العمل على توفير المناخ الثقافى الذى يرفض العنف الجسدى والإرهاب الفكرى، ويسمح بتطوير قراءة النص قراءة مواكبة لتطوّر المجتمع وظروف العصر.

ولا حلّ إلا فى التفات كلّ منا إلى من هم على يمينه فيقول:

– السلام عليكم ورحمة الله،

وإلى من هم على يساره فيقول:

– السلام عليكم ورحمة الله.

كتب للمؤلف

١ – دليل المسلم الحزين دار الشروق – القاهرة ١٩٨٣

٢ – الحروب الصليبية فى كتابات المؤرخين العرب المعاصرين لها.

مكتبة النهضة المصرية ١٩٨٣

٣ – فضل الإسلام على الحضارة الغربية. دار الشروق – القاهرة ١٩٨٣

٤ – ألف حكاية وحكاية من الأدب العربى القديم – المجلد الأول

دار الشروق – القاهرة ١٩٨٤

٥ – حول الدعوة إلى تطبيق الشريعة الإسلامية.

دار النهضة العربية – بيروت ١٩٨٥

٦ – فى بيت أحمد أمين. دار الهلال – القاهرة ١٩٨٥

٧ – التراث وتحديات العصر (بالاشتراك).

مركز دراسات الوحدة العربية – بيروت ١٩٨٥

٨ – التسامح الدينى والتفاهم بين المعتقدات (بالاشتراك).

مركز اتحاد المحامين العرب – القاهرة ١٩٨٦

٩ – تكنولوجيا تنمية المجتمع العربى (بالاشتراك).

مركز بحوث العلوم الاجتماعية – القاهرة ١٩٨٧

١٠ – الإسلام فى عالم متغير. مكتبة مدبولى – القاهرة ١٩٨٨

١١ - ألف حكاية وحكاية من الأدب العربى القديم - المجلد الثانى
دار الشروق - القاهرة ١٩٨٩

١٢ - أزمة حقوق الإنسان فى الوطن العربى (بالاشتراك).
مركز اتحاد المحامين العرب - القاهرة ١٩٨٩

١٣ - الإمام (مسرحية). مكتبة مدبولى - القاهرة ١٩٩٠

١٤ - مصابيح أقوال العرب. مكتبة مدبولى - القاهرة ١٩٩٠

١٥ - حوليات العالم الإسلامى. مكتبة مدبولى - القاهرة ١٩٩٠

١٦ - المائة الأعظم فى تاريخ الإسلام. مكتبة مدبولى - القاهرة ١٩٩١

١٧ - أهم مائة كتاب فى مائة عام (بالاشتراك).
دار الهلال-القاهرة ١٩٩٢

١٨ - رسالة من تحت الماء (٤٧ قصة قصيرة).
دار سعاد الصباح القاهرة / الكويت ١٩٩٢

١٩ - نهاية التاريخ وخاتم البشر (مترجم عن فوكوياما).
مركز الأهرام للترجمة والنشر ١٩٩٣

٢٠ - مصر فى عالم متغير (بالاشتراك).
اللجنة المصرية لتضامن الشعوب الأفروآسيوية ١٩٩٣

٢١ - المثقفون والإرهاب (بالاشتراك).
الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٣

٢٢ - جذور الإرهاب (بالاشتراك). الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٣

٢٣ – الاجتهاد فى الإسلام. الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٣

٢٤ – الموقف الحضارى من النزعات الدينية. دار سيناء – القاهرة ١٩٩٤

٢٥ – نحو تطوير التشريع الإسلامى (مترجم عن عبد الله النعيم).

دار سيناء – القاهرة ١٩٩٤

٢٦ – التيار الإسلامى فى مصر. جمعية النداء الجديد – القاهرة ١٩٩٤

٢٧ – التيارات الفكرية فى مصر فى القرن العشرين.

جمعية النداء الجديد – القاهرة ١٩٩٤

٢٨ – حرية الرأى والعقيدة (بالاشتراك).

المنظمة المصرية لحقوق الإنسان ١٩٩٤

٢٩ – ترجمة لمسرحية شكسبير: «تاجر البندقية».

دار الشروق – القاهرة ١٩٩٤

٣٠ – ترجمة لمسرحية شكسبير: «يوليوس قيصر».

دار الشروق – القاهرة ١٩٩٥

٣١ – ترجمة لمسرحية شكسبير: «حلم ليلة فى منتصف الصيف».

دار الشروق – القاهرة ١٩٩٥

٣٢ – ترجمة لمسرحية شكسبير: مكبث. دار الشروق – القاهرة ١٩٩٥

٣٣ – خضرة – (قصة للأطفال). الجمعية الكويتية لتقدم الطفولة ١٩٩٥

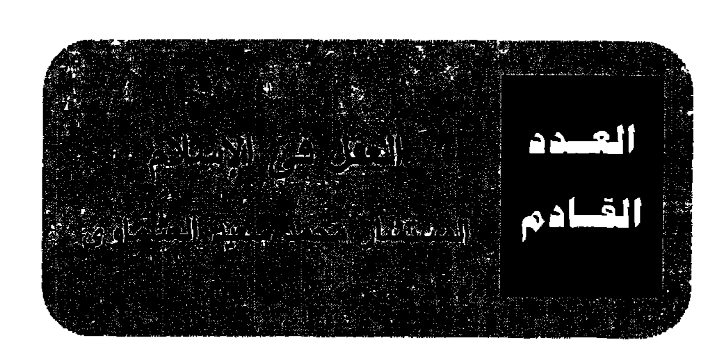
٣٤ – موسوعة الطفل (بالاشتراك).

المجموعة الثقافية المصرية / الهيئة العامة للكتاب ١٩٩٩

حسين أحمـد أمين

- ولد في القاهرة في ١٩ يونيـو ١٩٣٢. وهـو نجـل المـؤرخ الإسـلامي الكبير الدكتور أحمد أمين.
- تخرج في كلية الحقوق، جامعة القاهرة، عام ١٩٥٣.
- عمل محاميًـا، فمذيعًـا بالإذاعـة المصريـة، فمذيعًـا بالقسـم العربـي بهيئة الإذاعة البريطانية بلندن.
- التحـق بالسـلك الدبلوماسـي المصري عـام ١٩٥٧، وعمـــل ملحقًـا فسكرتيرًا ثالثا بالسفارة في أوتاوا (كندا)، فسكرتيرًا ثانيا بالسـفارة في موسكو (روسيا)، فمستشارا بالسفارة فـي لاجـوس (نيجيريـا)، فوزيرًا مفوضًا بالسفارة في بون (ألمانيا)، فقنصلاً عامًّـا فـي ريـودي جانيرو (البرازيل)، فسفيرا لمصر في الجزائر.
- انتدب خلال عمله بوزارة الخارجية مستشارًا فنيًـا لوزيـر الثقافـة، وأعير للعمل نائبًا لمدير مركز الأمم المتحدة للإعلام بالقاهرة.
- حصل كتابه «دليل المسلم الحزين» على جائزة أحســن كتـاب فـي معـرض القـاهرة الـدولي للكتـاب عـام ١٩٨٤، وصــدرت الترجمــة الفرنسية له في باريس عام ١٩٩٢.
- أهدت له الحكومة الألمانية وسام الاستحقاق الأكبر عام ١٩٨٣.
- عمل :
  - رئيسا للجنة الثقافية بجمعية النداء الجديد بالقاهرة.
  - عضوًا بمجلس إدارة جمعية النداء الجديد.

- عضوًا بمجلس أمناء مركز ابن خلدون للدراســـات الإنمائيـــة بالقاهرة
- مستشارًا للجنة الدولية للصليب الأحمر بجنيف.
- أستاذًا للدراسات الإسلامية بالجامعة الأمريكية بالقاهرة.
- أستاذًا زائرًا بجامعة جورجتاون بواشنجطون .



الفهـــرس

الموضـــوع | الصفحة

إهـــداء ٥
مقدمة ٧
كيمياء السعادة:
١ – علمتنى الحياة ١٠
٢ – المزاج والشخصية.................................... ٢٢
٣ – السعادة العائلية.................................... ٣٢
٤ – المكانة الاجتماعية والسمعة ٤٢
٥ – الشهرة ما لها وما عليها ٥٢
٦ – معايشة الواقع الحي ٦٣
– رب جنبنى شرب هذا الكأس.................................... ٧٥
– حول سلبيات مهنة الدبلوماسى ٧٨
– ساكن قصادى وباحبه ٨٣
– بعض مشكلات الناشرين ورؤساء التحرير.................................... ٨٦
– أى خلل هذا فى القيم ؟.................................... ٩٣
– ١ خواطر وانطباعات من واشنجطون.................................... ٩٦
– ٢ – خواطر وانطباعات من واشنجطون.................................... ١٠٦
– ٣ – خواطر وانطباعات من واشنجطون.................................... ١١٥
– المستقبل الذى ينتظرنا ١٢٤
– مفهوم العشق عند الغزالى وشوبنهاور.................................... ١٣٤
– سماحة الإســـلام.................................... ١٤٥

إشترك فى سلسلة اقرأ تضمن وصولها إليك بانتظام

الإشتراك السنوى:

- داخل جمهورية مصر العربية ٣٦ جنيهاً
- الدول العربية واتحاد البريد العربى ٥٠ دولاراً أمريكيًّا
- الدول الأجنبية ٧٥ دولاراً أمريكيًّا

تسدد قيمة الإشتراكات مقدماً نقداً أو بشيكات بإدارة الإشتراكات بمؤسسة الأهرام بشارع الجلاء – القاهرة

أو بمجلة أكتوبر ١١١٩ كورنيش النيل – ماسبيرو – القاهرة.

رقم الإيداع	١٩٩٨/١٧٥٣٢
الترقيم الدولى	ISBN 977-02-5724-9

١/٩٨/١٠٥

طبع بمطابع دار المعارف (ج . م . ع .)



هل السعادة ممكنة؟ أم هي هدف وهمي من الصعب - إن لم يكن من المستحيل تحقيقه؟

فإن كانت ممكنة، فهل لها مقومات ثابتة وواحدة بالنسبة للكافة. بالرغم من اختلاف ظروف الأفراد وطبيعة تكوينهم؟

أم هي مسألة نسبية، بحيث يحق لكل منا أن يسعى إلى نيلها بطريقته الخاصة؟

فإن كانت مقوماتها ثابتة، فهل هي تخضع لإرادة الفرد؟ أم أنها من هبات القدر لا حيلة لنا فيها؟

هل يحق لنا الحديث عن عناصر «كيميائية» لا غنى عنها في نيل السعادة، أو في المساعدة على نيلها؟

الإجابة عن كل هذه الأسئلة نجدها بين دفتي هذا الكتاب.



دار المعارف

٤٠٦٩٧١/٠١

